حي على الفلاح

اسم الكتاب: حي على الفلاح
التأليف: سعاد محمد
مراجعة لغوية: سواح للخدمات عبر الإنترنت
الإخراج الفني: عمرو وسالم سواح
رقم الإيداع: 2019/ 14362
الترقيم الدولي: 978-977-835-125-5
الناشر: دار زحمة كُتّاب للنشر والتوزيع
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook
Email za7ma-kotab@hotmail.com
Tel : 002 01205100596
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار زحمة كُتّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

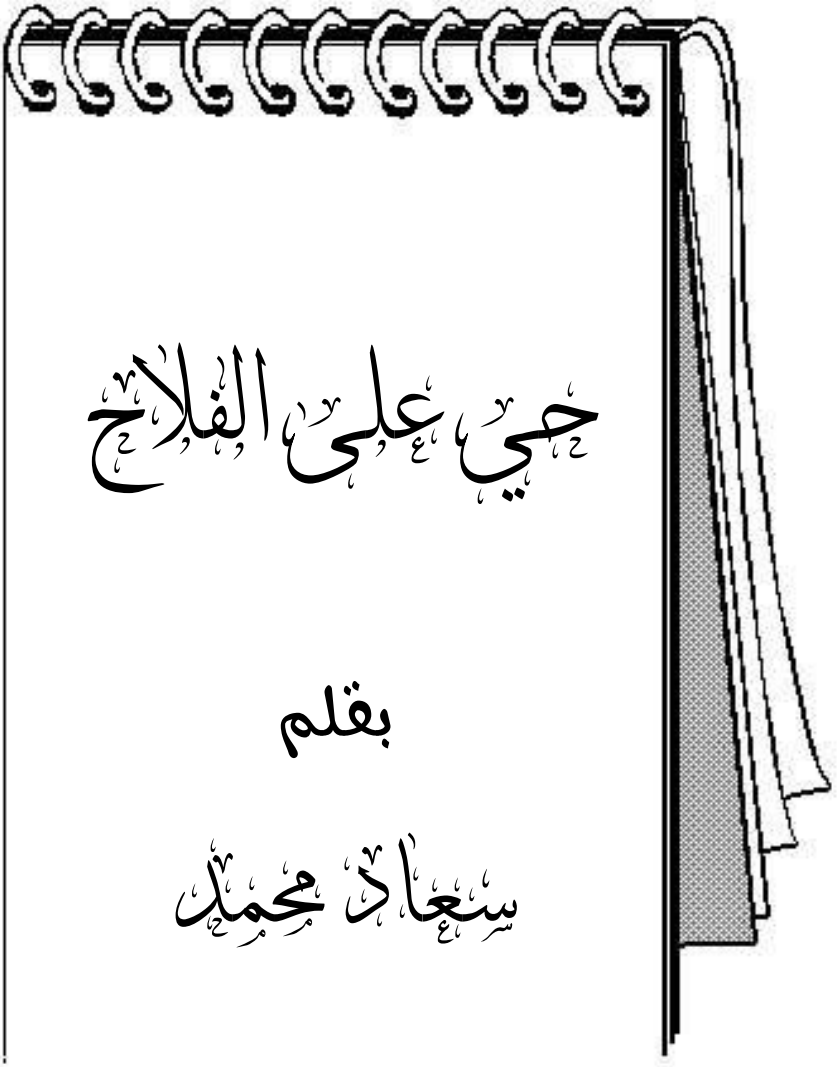

حي على الفلاح

بقلم

سعاد محمد

((حيّ على الفلاح))

عند طلوع الفجر الصادق،

وهو عبارة عن انشقاق الصبح جنوبًا وشمالًا في جهة الشرق... فيزداد نوره ليطلع الفجر،

فاصلًا الخيط الأبيض عن الخيط الأسود.[١]

حينها يؤذن المؤذن قائلًا: "الله أكبر"..

---

١ "نور على الدرب، الإمام ابن باز رحمه الله".

فيسعى المصلون لأداء صلاة الفجر، سواءً في المسجد، أو في البيت.

نداء وراء نداء، وصلاة تليها صلاة.

كلمات عذبة تُطرب الأذن حين نسمعها، وتلج الفؤاد.

إن الله ينادينا، يحثُّنا على الوقوف بين يديه.

فنتوضأ لنطهِّر أبداننا،

ونتجرد من كل مُتعلقاتنا الدُّنيوية في تلك اللحظات العظيمة.

ألم تتساءل يومًا....

من أين جاءت فكرة الأذان؟

تُرى.... هل كان وحيًا؟

أم كان أمرًا من الله؟

كان المسلمون في بداية الإسلام يتوجهون إلى بيت الله بلا أذان أو نداء،

وعندما شقَّ عليهم أمر جمع المسلمين لأداء الصلاة،

اقترح بعضهم أن يتخذوا ناقوسًا،

ولكن الناقوس هو من أمر النصارى.

في حين اقترح بعض آخر أن يتخذوا بوقًا،

ولكن البوق هو من أمر اليهود.

فاقترح عمر بن الخطاب "ﷺ" أن يُبعث برجل لينادي بالصلاة فوافق سيدنا محمد "ﷺ"، ووكَّل (بلالًا) لكي ينادي بالصلاة.

وذات ليلة....

رأى الصحابي الجليل "عبد الله بن زيد " في منامه رجلًا عليه ثوبان أخضران يحملُ ناقوسًا،

فقال له الصحابي "عبد الله بن زيد ":

- (يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟)

أجابه ذلك الرجل:

-(وما تصنع به؟)

قال الصحابي:

-(أنادي به إلى الصلاة)

قال الرجل:

-(أفلا أدلك على خير من ذلك؟)

قال الصحابي:

(وما هو؟)

قال الرجل:

(الله أكبر.. الله أكبر..

الله أكبر.. الله أكبر،

أشهد أن لا إله إلا الله،

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمدًا رسول الله،

أشهد أن محمدًا رسول الله

حيَّ على الصلاة،

حيَّ على الصلاة

حيَّ على الفلاح،

حيَّ على الفلاح

الله أكبر، الله أكبر..

لا إله إلا الله)[١]

---

١ "أبو داود وصححه الألباني"

فأسرع الصحابي الجليل إلى سيدنا محمد ﷺ، وأخبره بتلك الرؤيا العظيمة.

فقال النبي ﷺ:" إنها رؤيا حق "،

وطلب منه أن يُلقيها على بلال، لأنه أندى صوتًا.

فلما سمع عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" صوت بلال وهو يؤذن خرج يجر رداءه وهو يقول:

(يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيتُ مثل ما رأى)

فقال رسول الله ﷺ: (لله الحمد)[١]

*****

[١] رواه أحمد (١٥٨٨١) والترمذي (١٧٤) وأبو داود (٤٢١) وابن ماجه (٦٩٨).

نعمة الأذان التي تُستطاب لها القلوب خمس مرات كل يوم وليلة.

أرددها في سمعي وعلى لساني حين أسمعها، فلا أقوى على أن أتغافل عن هذه الكلمات العظيمة.

" حيَّ على الفلاح ".....

يقشعر بدني لسماع كلمة (**الفلاح**)؛ ففي هذه الكلمة وحدها يحثني الله بل يدفعني لأنْ أهمَّ وأقبل على الفلاح والنجاح.....

تُرى ما هو الفلاح؟

الفلاح بمفهومه اللغوي....

هو النجاح والصلاح.

ولكن هل يُدرك البشر معنى الفلاح والنجاح؟

هناك إنسان يُدرك ماهية الفلاح بمفهومه الخاص، مُدعمًا ذلك بكل الأساليب الخاصة به التي تناسب حياته وتُرضيه، فيَعْتَبر ما وصل إليه هو النجاح المنشود أيًّا كان هذا النجاح موافقًا للتشريع السماوي أم لا.

وهناك آخر يُخْضع كل أفعاله وآمانيه وأهدافه في الحياة، بل تصرفاته التي توصله إلى النجاح وفقًا لقوانين التشريعات السماوية. وذلك بعد السعي المضني والعمل الدؤوب.

أشعر بل أومن إيمانًا عميقًا بأن هناك صلة وثيقة بين الروحانيات العالية التي يصل لها العبد والفلاح في الدنيا والآخرة.

وقد مررتُ في حياتي بقصصٍ عديدة وحواديتَ ليس لها مثيل. تلك الحواديت تُثبت أن هؤلاء البسطاء في الحياة،

ولا أقصد بالبسطاء هنا الفقراء..... حاشا لله. بل أقصد أولئك الذين ينعمون في الحياة بعيشة بسيطة غير

معقدة. ينظرون إلى الحياة نظرة العابر لها، ليس المتشبث بتفاصيلها المبهرة.

أولئك البسطاء هم من بلغوا الفلاح حقًّا.

رَغِبتُ في أن أقصَّ عليكم بعض الحواديت الصغيرة لأناس عشت معهم، وعرفتهم في حياتي.

أناس حقيقيون، وحواديت واقعية قد حدثت بالفعل.

كل حدوتة تحمل في خفاياها معنى الفلاح.

*****

(الحدوتة الأولى)

شبيهة أم كلثوم

عندما نقابل الحرمان بالعطاء...

نتفاجأ بجود عطاء الله...

وعندما نسكن ونصبر بإصرار...

ننال الفلاح في الدنيا قبل الآخرة.

نلتف حول "الطبلية "-وهي مائدة دائرية صغيرة بأقدام قصيرة- لتناول "الكشك"، وهي أكلة مصرية في الغالب من اخترعها هم أهل الصعيد أو هكذا ثبت في ذهني؛ لأن من صنعته لنا هي سيدة صعيدية كانت تسكن معنا في نفس العقار في الطابق الثاني في ذلك البيت القديم المزدحم بالسكان.

ألتهمُ "الكشك" أنا وأختي الكبيرة كالوحوش، فقد أحببنا كل ما تقدمه لنا "أم حمدية " من طعام، ولا نقوى على مقاومته.

كانت سيدة طيبة القلب، عالية المقام، أشبه بأم كلثوم في شبابها.

ناديناها أنا وأختي ب" ماما حمدية ".... هكذا أمرتنا أمنا أن نناديها؛ لأنها لم تنجب، فكنا لها صغارًا، وكانت لنا أمًّا.

أتذكَّر سجادة الصلاة التي كانت تبسطها دائمًا على الأرض في غرفة الضيوف، تلك السجادة التي بَلِيت من كثرة السجود، وذلك الوشاح الأبيض الناصع المُلقى على الكنبة الذي كانت ترتديه في صلاتها.

زوجها الطيب "الأسطى محمد"، كان دائم المزاح والمرح، خفيف الظل. ولأننا كنا صغارًا، لقبناه "بابا الأسطى".

كان ذلك البيت نظيفًا وهادئًا، يتسع لأهل العقار كله، لشرب الشاي والقهوة، في أثناء مشاهدة مسلسل الساعة السابعة والنصف، الذي كان يسبق نشرة التاسعة مباشرةً.

بكل بساطة، لم يكن هناك تلفاز آخر مُلون، لدى باقي السكان. وذلك كان أمرًا طبيعيًّا في أوائل الثمانينيات، بالنسبة للأسر متوسطة الدخل.

لم تضجر تلك السيدة، أو تمل من الترحاب بالجيران، أو تبدِ ضيقًا من وجودهم المتكرر.

كنتُ أنا وأختي نتسلل من شقتنا، في أغلب الأوقات، لننزل إلى شقتهم، لنلهو ونمرح معهم.

تلك الحياة البسيطة، التي لا تحمل الكثير من التفاصيل سوى المعاملة الحسنة، والعلاقات الطيبة، والتفاؤل برغم البلاء، فقد حُرموا نعمة الإنجاب، وواجهوا ذلك الحرمان بفتح باب شقتهم للجميع، فكانت تلك الشقة هي الأفضل في العقار كله، الملاذ الممتع لكل الأطفال، ومنهم أنا وأختي بالطبع.

ثم دارت الأيام والسنون وانتقلنا أنا وأسرتي لبيتنا الجديد، لم يكن ذلك بالأمر السهل على قلبي فقد كنتُ دائمًا أميل إلى حياة البسطاء.

كنا نتزاور على فترات بعيدة، لا نعلم من أخبارهم الكثير.

تُوفي "بابا الأسطى"، وطلب أصحاب العقار من "ماما حمدية" أن تبدل شقتها في الدور الثاني بشقة أخرى في الطابق الأرضي؛ لكي يتزوج ابنهم الكبير، فهو لا يملك المال الوفير ليستأجر شقة.

كانت شقة الدور الأرضي صغيرة جدًّا، غرفة واحدة، وصالة ضيقة لا تكفي إلا لأريكة واحدة ومنضدة طعام.

حزنتُ كثيرًا، ذهبتُ إليها مُسرعة، طلبتُ منها بإلحاح أن ترفض ذلك الأمر وتظل في شقتها الكبيرة. تلك الشقة، التي كانت ملجأ للجميع، لم أكن أستوعب أنها ستلملم سجادتها البالية التي كانت تُبسط في غرفة الضيوف، وكنتُ أحبُّ الجلوس فوقها.

لم أقوَ على استيعاب أن أفقد مشهد الوشاح الأبيض الجميل المُلقى على الكنبة.

إلا أنها فاجأتني بردها:

-(تُوفي زوجي، وليس لي أحد هنا من أقاربي؛ فكل أقاربي وأهلي في الصعيد، وأصحاب العقار هم أهلي وأنسي هنا، فهم جيراني ومن يراعونني حقًّا، ويتعايشون معي. اطمئني فأنا راضية)

وبالرغم من عدم قناعتي بما حدث، خاصة بعد أن قمتُ بزيارتها مرارًا في تلك الشقة الصغيرة الضيقة، فإن الأيام أثبتت لي بعد ذلك فطنتها وحكمتها...

كان معاشها من زوجها صغيرًا لا يكاد يكفيها، هكذا ظننت.. ومع ذلك إذا دخلتُ شقتها وجدتُ كل ما طاب ولذَّ من الطعام الذي تُهديكَ إياه.

وكأن البركة تسير معها أينما سارت.

كانت تدخر النقود مع جارتها شهراً بعد شهر، فأنعم الله عليها بالعمرة في رمضان، وهناك في مكة أقامت حتى موعد الحج، وأدت الفريضة.

واقتسمت معاشها بعد ذلك نصفين بينها وبين أولاد أخيها المتوفى في الصعيد، وأولت هذه المهمة إلى شقيقتي الكبرى، التي كان عليها كل شهر إرسال تلك الحوالة البريدية لهم.

وكانت تحزن بشدة بالغة إذا تقاعست أختي عن مهمتها تلك.

تُرى هل عرفت "ماما حمدية " معنى الفلاح؟

هل آمنت به؟

كان يبدو ذلك واضحًا في كل أفعالها بالرغم من أنها لا تعرف القراءة والكتابة.

نصحتها إحدى جاراتها بأن تحتاط لنفسها ببعض المال، تدخره لمرضها في شيخوختها.

كان ردها لا يزال محفورًا في ذهني حتى يومنا هذا حين قالت:

(أعين فلوس للمرض! أعوذ بالله، أديها لربنا هو سبحانه، اللي بيشيل المرض)

نعم، إنه الاختيار الصائب لدرب من دروب الفلاح قولًا وفعلًا.

تمر السنون، وما زالت تلك الكلمات عالقة في عقلي لم ولن أنساها.

ومنذ ثماني سنوات، وبعد صيامها لشهر رمضان كاملًا، وأتبعتها بالست البيض، وهي في سن الخامسة والسبعين، وبعد آخر يوم في صيام الأيام البيض من شوال إذا بها تقيء دمًا.

نعم، إنه ذلك المرض اللعين "فيروس c " الذي قضى على كثير من أبناء ذلك الجيل.

لم تبد عليها أعراض هذا المرض بكآبته البشعة سوى يومين فقط، عندما أبلغهم الطبيب بأنها في المرحلة الأخيرة.

تعجب الطبيب من أنها لم تشكُ من ذلك المرض قَطُّ، وكيف أنها لم تعانِ مما كان يعاني منه المرضى من ألم، فقد كانت تصوم، وتصلي، وتواظب على دروس العلم في الجامع في أواخر أيامها كالشباب، بل أفضل منهم.

إنها مقولتها التي آمنت بها:

(أعين فلوس للمرض! أعوذ بالله، أديها لربنا، هو اللي بيشيل المرض)

إنه الفلاح الذي اختارته بنفسها، وسلكت كل دروبه في حياتها.

بل آمنت به، وأصرت عليه، برغم من انتقاد بعض الناس لها ولفكرها.

ولكنها في النهاية لبت نداء الأذان:

"حيَّ على الفلاح "

ففازت به في دنياها وآخرتها.

*****

((الحدوتة الثانية))

بلهاء فطنة جميلة

ربما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن..

ولكن التعلق بأمل النجاة..

هو الحبل المتين، الذي يجب أن نتشبث به..

وأعظم تعلق هو التعلق بقدرة اللّه.

فتاة جميلة الوجه، هادئة الطباع، ساكنة الملامح، ابنة صاحب ذلك العقار القديم الذي كنا نقطنه أنا وأسرتي. تتحمل مسؤولياتها كاملة من العمل اليومي، رغم صغر سنها، أتذكرها وهي واقفة في محل البقالة أسفل العقار.

طفلة لا يزيد عمرها عن ثماني سنوات، واعية، شاخصة البصر لكل ما حولها من بضائع.

سألتها ذات يوم، وكنت أصغُرُها بعامين من العمر:

ـ (لِمَ لا تأخذين من الحلوى ما تشتهين؟!).

ـ (حرامٌ، أنا لا آخذ شيئًا، إلا ما تمنحه أمي لي).

فلقّبتها حينئذ بالبلهاء.

لم أكن أعلم أن منى تعي ما تقوله، وما تفعله، ربما كانت طفلة صغيرة، ولكن عقلها وأفكارها متينة.

هناك اعتناق داخلها لمسلَّمات.

تلك المسلمات التي ستقودها إلى الفلاح المنشود فيما بعد.

أتذكر تلك الأيام الجميلة في رمضان خاصة بعد العصر، حين تتجمل الشوارع والمقاهي في الأحياء الشعبية، وتستعد لمدفع الإفطار.

عربة العم حسن الزجاجية مملوءة بالأطباق الصغيرة من المهلبية، والأرز باللبن. كنتُ أنا وأختي نشتهي الشراء منه قبل المغرب، والأطباق لا تزال ساخنة وشهية.

وكنتُ ما أزال في السادسة من عمري، لم أعِ معنى الصيام بعد.

وكانت منى، تلك الفتاة الجميلة في الثامنة من عمرها، وتصوم رمضان كالكبار.

كانت منى تشتهي تلك الأطباق الساخنة أحيانًا، فتجيء معنا نشتري أنا وأختي، أمَّا هي فكانت تنظر إلى الناس من حولها، وكيف ينظرون لها، وهي تأكل قبل مدفع الإفطار. كنتُ أنظرُ إلى عينيها وهي زائغة من الخجل.

ـ (لماذا لا تأكلين معنا يا منى؟).

ـ (نأكل والناس صائمون، عيبٌ علينا).

وتتركنا وتركض عائدة إلى البيت.

هل كانت منى تعي معنى الفلاح في تلك اللحظة؟

ربما كانت تلك البدايات لديها.

ثم انتقلنا إلى البيت الجديد، وتركنا ذلك العقار، وانقطعت الأخبار عنها.

ثم شاهدتها صدفة في الشارع، وهي ذاهبة إلى المسجد، لتصلي التراويح، بعد أن بلغت ثمانية عشر ربيعًا.

سألتها :

(ما هي صلاة التراويح؟ وكيف أصليها؟ وما فائدتها؟)

ولكنها أجابتني بسطور مُجملة ومختصرة، ولكنها تحمل معنى، لم ولن أنساه.

ـ (إنها صلاة، تُشعرني بالسعادة، لا يحس ذلك ولا يستشعره، إلا من داوم عليها في المسجد)

وكانت تلك بدايتي أنا مع صلاة التراويح، ومنذ ذلك الوقت حرصتُ كل رمضان أن أصليها في المسجد.

رغبت في البحث عن السعادة التي أوحت لي بها منى.

بل كل عام، أحاول أن أستنفر همة كل من حولي، للذهاب إلى المسجد، لأداء صلاة التراويح لعلهم يستشعرون شيئًا من تلك السعادة.

تزوجت منى بعد وفاة أمها بسنوات قليلة.

حضرتُ زفافها، وقمتُ بزيارتها في بيتها الجديد لأهنئها على الزواج.

رأيتُ في عينيها الحب الشديد لزوجها، فقد أحبته بكل كيانها، وكرست حياتها بعد ذلك لرضاه وخدمته بشغف ولهفة.

رأيتُ في عينيها ضوءًا لامعًا، حين قابلتها صدفة في تلك السنوات. ضوء العيون الممزوجة بالعشق والمرح، بل الرغبة في احتضان العالم بأسره، كأنها امتلكت الدنيا بين يديها.

توالت السنون، ولم تنجب منى.

بدأت زياراتها المتكررة لطبيب النساء.

هناك مشكلة طبية تعاني منها منى، وتمنعها من الإنجاب، وبعد عمليتين جراحيتين باءت المحاولات بالفشل؛ فقررت الذهاب إلى العمرة، لكي تغتسل من ماء زمزم.

استشعرت في أعماقها أن زوجها يرغب في الزواج من أخرى من أجل الإنجاب؛ فمن سيرث تجارته؟ ولمن سيترك كل هذا المال؟

فذهبت إلى البيت الحرام، وتعلقت بأستار الكعبة، لكي تشكو همها إلى الله ﷻ، سائلة ربها العون، فهو وحده الملاذ الأول والأخير.

بكت واغتسلت بدموعها، ووقفت أمام خالقها ذليلة، راضية، راجية نعمته.

عادت منى إلى القاهرة، واطمأنت في بيتها إلى قدر الله المحتوم.

مر شهران فقط لتكتشف أمر حملها، لم تشك للحظة أن الله سيجبر خاطرها، فقد كانت شديدة اليقين بأن الله ناصرها.

إنه أسرار الفلاح، التي لا يعيها سوى القليل من العباد.

*****

لم تنتهِ الحدوتة بعد.

بالطبع كانت سعادتها بطفلتها، لا تُوصف.

ولكن بعد ثلاثة أعوام تكتشف أن زوجها لن يكتفي بابنته الوحيدة، فقد قرر الزواج لإنجاب الولد.

لم تكترث منى لما كان ينويه زوجها، فقد كانت شاكرة لله وعطيته لها حامدة له كلما وقعت عيناها على ابنتها الصغيرة وهي تلعب حولها.

كلما احتضنتها، كلما لعبت معها، كلما نادتها "يا أمي". فقد أعطاها ابنتَها التي ملأت عليها الدنيا.

عندما قابلتها، وقصت علي ما ينوي زوجها فعله قلت لها:

ـ (لماذا لا تصرخين يا منى؟ لماذا لا تبكين؟ فالأمر مؤلم جدًا، أنا أبكي لما يحدث لكِ، وأتألم من أجلكِ)

لكنها تبسمت في وجهي، ومسحت دموعي التي سقطت على خديَّ بيديها الجميلتين، قائلة لي:

-(لا تبكي، أنا راضية، صابرة، محتسبة كل شيء لله، ولا تنسي أن الله استجاب لدعائي، ووهبني ابنتي الجميلة التي سأمنحها كل حياتي).

-(هل ستطلبين الطلاق يا منى؟)

-(لا، ولمَ أفعل ذلك؟! حقيقة هو يحبني، ويعاملني بلطف شديد، فأنا أحبه، هو أبو ابنتي الوحيدة سأتعايش يا صديقتي، لا تقلقي. سأتعايش)

دعوتُ لها بالصبر، وتمنيتُ لها السعادة.

تزوج زوجها بالفعل فتاة تصغرها بسنوات، فأصبحت المقارنة مُوجعة بين منى وبين العروس الجديدة.

مررتُ عليها بعد كل تلك الأحداث لأطمئن عليها، لأرى ملامح وجهها قد تحولت إلى وجه عبوس.

لا يعلوه أي مشاعر سوى روح قلب موجوع.

قست عليه الأيام، ولا منقذ لها إلا الله.

امتازت منى بالصبر واليقين بنصر الله،

وبالفعل قررت الذهاب إلى الحج مع زوجها والتعلق بأستار الكعبة من جديد، فهو اللقاء الموعود.

إنه الملجأ، إيمانها ويقينها أكبر مما يتصوره أحد.

عادت منى من فريضة الحج راضية، أكثر هدوءًا.

سمعت تهنئة حماتها لزوجها فور عودته باكتشاف حمل عروسه الجديدة.

فالجميع ينتظر المولود الجديد، ولكن فرحتها بفريضة الحج وإيمانها الشديد بأن الله سيجبرها، كانت أقوى من سماع تلك الأخبار.

ولم تمر سوى ثلاثة أشهر، حتى شعرت منى بأن هناك جنينا يتحرك في أحشائها.

يا أللهِ! يا أللهِ! إنه الوهاب الرزاق، يهب لمن يشاء.

أنجبت الزوجة الثانية بنتا جميلة.

أما منى فقد أنجبت بعدها بأربعة أشهر، الولد الذي تمناه الأب.

منحها الله ما كانت تتمناه،

إنه اليقين بإجابة الدعاء،

فهى لا تمل أبدًا من الاستغفار والرجاء.

لا تمل الصبر، والتعلق بالله.

إنه الفلاح.

فمن رغب في الفلاح وسعى له، يناله في الدنيا قبل الآخرة.

*****

((الحدوتة الثالثة))

طاقة الجامع

نظرة..

فحب..

فلقاء.

فصراع طويل من أجل بقاء الحب.

هناك في مكان عملي أرى ضحى وقد وقفت شاردة الذهن، لا أعلم لمَ تقف هكذا أغلب الوقت؟

تُرى، ما وراءها؟

لم أكن في بداية الأمر أرتاح في التعامل معها، ولكن وجدتُ نفسي أراقبها من بعيد.

يومًا تلو الآخر استشعرت الراحة في كلامها.

كنتُ دائمًا أعتقد أنها تحمل قصة طويلة في طيات وجدانها.

ساقني الفضول للحديث معها ذات يوم.

أخبرتها حقيقة ما بداخلي من شعور، وأني أعتقد أنها عكس ما تبدي، وأنا أشعر بارتياح في التعامل معها الآن.

فكان واجب الاعتذار لها شيئا حتميا علي فعله.

فوجدتها بالفعل، تُبدي كل الترحاب بالحديث معي، بل كأنها وجدت المتنفس ليطفو ما بداخلها من سطور وعبارات.

كانت الدموع تتساقط على وجهها كالسيل المنهمر لا أستطيع أن أوقفها. حاولت تهدئتها، فأنا أعلم خبر وفاة أبيها منذ ثلاثة أشهر، ربما كانت تحن إلى احتضانه.

أبرزت لي صورة من محفظتها، قبلت الصورة، واحتضنتها، قائلة لي:

-(أترين هذا الرجل؟، إنه أبي "رحمه الله" هو حكاية، لن يتكرر مثله الكثير، لن تصدقي ما سأرويه لكِ. عم سيد، لم يكن بالرجل العادي)

فقاطعتها في كلامها، وأعددت كوبين من الشاي، وابتعدنا عن زملائنا قليلًا، لتبدأ ضحى حكايتها مع أبيها العم سيد.

-"كان أبي، عم سيد يهوى العمل في صيانة المساجد وهو شاب صغير بدون أجر يعتبرها صدقة جارية شكرًا لله على الصحة والعافية، بالرغم من أنه لم يكن ملتزمًا في صلاته.

وفي أثناء أعمال الصيانة للمسجد وقعت عيني عم سيد على فتاة تجلس فوق سطح البيت، المقابل للمسجد.

فتاة جميلة الوجه، بشوش، تنظر بتمعن عجيب داخل المسجد.

في بداية الأمر، ظن سيد أنها تنظر إليه، ولكن عندما أشار لها بيديه، تأكد أنها تنظر إلى المصلين.

فأسرع سيد، وسأل شيخ الجامع، عن هذه الفتاة، وما حكايتها!

فأجابه بأنها فتاة نصرانية، تحب سماع الأذان، وتحب أن ترى صلاة المسلمين.

كانت لتلك الفتاة النصرانية حكاية أخرى.

لم يكن لأم تلك الفتاة النصرانية حظ في أن يعيش أبناؤها فذهبت إلى دجالة تستشيرها في ذلك فأخبرتها الدجالة بأنها إذا وضعتْ مولودها الجديد، فعليها أن تسرع لتمرره من طاقة الجامع سبع مرات.

"طاقة الجامع " هو شباك طويل رفيع في جدار المسجد، هكذا كان يسمونه.

وبالفعل عندما وضعت طفلتها، أسرعت وأعطتها لجارتها المسلمة لتدخلها الجامع وتمررها لها من الطاقة سبع مرات كما أمرتها الدجالة بأن تُخفيها عن أعين الناس.

خافت الأم على ابنتها الوحيدة الباقية لها، ولم تستخرج لها أي شهادة ميلاد.

عاشت الفتاة حتى بلغت السادسة عشرة، وكانت دائمًا تنظر من فوق سطح البيت على المصلين.

كانت هي تلك الفتاة التي شاهدها العم سيد، وأوغلت في قلبه سهم الهوى.

فظل سيد يتردد على المسجد كل يوم، ليقوم بأعمال الصيانة من ناحية، ومن ناحية أخرى يرى فتاته الجميلة التي وقع في حبها.

لاحظت الفتاة نظرات سيد، ووقعت في حبه على استحياء منها.

قرر سيد أن يتزوجها، وبالرغم من صعوبة ما واجهاه نظرًا لاختلاف الدين بين العائلتين.

وبعد صراعات طويلة استطاعا الزواج لم يكن ذلك بالأمر السهل أبدًا، فقد دفعا فاتورة ذلك.

فقد قاطعهم كل أقاربهم، فعاشوا فرادى دون أهل أو سند.

وقفت الفتاة النصرانية لتسأل زوجها أن يعلمها صلاة المسلمين.

صمت سيد طويلًا، وقف حائرًا متسائلًا:

(كيف أعلمها الصلاة؟ أنا لم أتعلمها جيدًا)

بكى بكاءً شديدًا، وسأل نفسه: "كيف وصلتُ إلى هذا العمر وأنا لا أعرف الصلاة، ولا أعرف الكثير عن أمور ديني؟".

فأمسك يدها بشدة، وأسرع يجر نفسه قبلها، واتجه إلى أقرب مسجد، وسأل الإمام أن يعلمهما الاثنين معًا.

مرت السنون وراء السنين.

وكانت الدنيا تتغير لهما في أمواج تلك الأيام؛ فقد تعلما، بل حفظا القرآن معًا.

نعم، ختما القرآن معًا، وعلماه لأولادهما الخمسة.

بل أكثر من ذلك، فقد تعلم الحاج سيد كل أمور الفقه الشرعي بجانب التجارة التي كان يشتغل بها.

وعُرف بعد ذلك "الشيخ سيد "، فقد قام بتحفيظ الكثير والكثير من الناس كتاب الله، وعلمهم دينهم".

تبسمت ضحى، فقد كانتْ فخورة بأبيها الشيخ سيد، وأمها التي كافحت معه، وتعلمت، ولم تتوانَ وتتقاعس مثل الكثيرين.

وقفتُ صامتة وكأن على رأسي الطير، فقد وُلدنا مسلمين والقرآن في بيوتنا، بل علمنا آباؤنا كل شيء في الدين، ودفعونا إليه دفعًا.

كل شيء جاءنا سهلًا دون تعب.

أما الشيخ سيد وزوجته، فكافحا بكدٍّ وتعب مضنٍ، ليس بالسهل ليحصلا على ما وصلا إليه.

هذا الرجل عرف معنى الفلاح، وأيقن به بداخله.

اختار الطريق، وسار على دربه.

تتساءل ضحى:

(تُرى هل أستطيع أن أكون مثل أبي رحمه الله؟

هل سأواجه الحياة وأفهم الدرب مثله

أم أنه كان من القليلين الذين نجحوا في إدراك وفهم الفلاح في الدنيا والآخرة؟)

*****

الحدوتة الرابعة

الشاب الأسمر

قد يؤمن الإنسان بمعنى اسم من أسماء الله الحسنى، ويظل يبتغي فضل هذا المعنى طوال حياته حتى يرى بعينيه تحقق ما آمن به.

قررتُ أنا وصديقاتي أخيرًا الخروج للتنزه، وبعد نقاش طويل استمر لساعات، وقع الاختيار أخيرًا على ذلك الكافيه المشهور في بلدتنا.

اصطحبنا أولادنا، وبالفعل قضينا وقتًا لطيفًا جدًّا، وهناك أشارت لي إحدى صديقاتي إلى شاب أسمر طويل، وسألتني:

ـ هل تعرفينه؟

ـ لا، ولكن انتظري، أشعر أني أعرفه، أو أني قد رأيته من قبل.

ـ هو كذلك فعلًا، أنتِ تعرفينه، فهو زميلنا في الجامعة منذ سنوات، وهو مالك الكافيه الذي نجلس فيه الآن.

فبدا على وجهي الاندهاش.

ـ لا تندهشي هكذا، وكذلك المطعم في أول المدينة، وكذا البرج الكبير المطل على النيل.

ـ ما شاء الله، ولكن من أين كل هذا، فأنا على علم أن زيادًا لم يكن غنيًّا لهذه الدرجة؟

ـ نعم، عزيزتي، أنسيت أنه ابن خالتي، وأنا أعرف كل تفاصيل حياته.

ـ نعم، نسيت ذلك، ولكني متشوقة لمعرفة ما حدث بعد أن رفضه والد حبيبته التي كان يحلم بالزواج منها ليل نهار.

ـ أنتِ ما زلتِ تتذكرين قصة حبه الأول؟!

ـ وهل ينساها أي أحد من أصدقائنا؟!

ـ سأخبرك بما حدث.

بعد أن تخرج زياد من الجامعة، واجهته الصدمة الأولى برفض والد حبيبته له رفضًا معنفًا، وذلك لوجود فارق ليس بالهين في المستوى الاجتماعي بين العائلات.

لاحقه الحزن، بل بدت على وجهه ملامح الوجع، فلم يعد يتصل بأحد من أصدقائه أو أقاربه، فأول ما كان يحلم به انسلخ من بين يديه بلا رجعة، فهو ليس من النوع الذي يأتي على كرامته، فقد أعد رفض أبيها له ميثاق عهد في قلبه بأنه لن يقترب منها، أو يطمع في الزواج منها أبدًا.

ـ يا له من إنسان عنيد....!

ـ نعم، ولكن عِنده وإصراره هما السبب في نجاحه طوال ذلك الوقت؛ فقد أصر على البحث عن تأشيرة الخروج من البلاد والبحث عن العمل حتى إني قابلته في بيت خالتي ذات يوم، وشككت في إمكانية حصوله على التأشيرة إلى أوروبا فصدمني قائلًا " إنه الجبار" فالتزمت الصمت، ولم أحاول أن أستفسر عما كان يقصده. ولكنه كان يعني الكثير الذي لم أعِهِ حينذاك.

بعد مرور أيام وأسابيع، بل شهور، فوجئت أنه قد حصل على التأشيرة بالفعل، وذهبت أنا وأمي لكي نودعه في بيت خالتي. وأعاد نفس الكلمات على أذني، ألم أخبركِ بأنه "الجبار"

سأخبرك ما كنت أعنيه.....

أنا مؤمن يابنة خالتي بأن الله سيجبرني، وهذا ما كنت أعنيه، إن الله هو الجبار، يجبر المنكسرين.

وفعلا بدأت أفهم ما يعنيه.

ثم سافر زياد إلى أوروبا بالقليل من المال في جيبه، وكانت الأزمة الأولى في حياته....

أول أيامه هناك، حيث قام بالاتصال على أمه باكيًا قائلًا لها:

لا أستطيع النوم يا أمي! فأنا أعيش في غرفة ليست آدمية، قذرة، وأنا لم أعتد على ذلك، كنتِ ترتبين سريري كل يوم، وتنظفين حجرتي، وتهتمين بطعامي.

أعلم أنني كبرت، وعليّ أن أتحمل اختياراتي، ولكنه شعور خالجني، عندما ضاق صدري، أردت البكاء بين يديك.

ـ طلبت خالتي منه الرجوع إلى الوطن مرة أخرى، ولكنه رفض، وأكد لها أنه لن ييأس، وأن معه الجبار، الله هو الجبار، الذي يجبر كسره وضعفه، وأنه مؤمن بذلك طوال الدهر.

وفعلا بدأ يتحمل تلك العراقيل، محاولًا البحث عن العمل، وبالفعل بعد أيام نجح في العثور على عمل في أحد المطاعم، وكان كل يوم صباحا أو مساء حسب ساعات عمله، يخرج من السكن ويلقي التحية على جارته المسنة، يحاول مساعدتها في أي شيء، فقد كانت تذكره بأمه.

دائم السؤال عنها، لأنها كانت وحيدة لا يسأل عنها أبناؤها.

اعتادت تلك المسنة، أن تجد الرعاية من زياد، فسألته أن يتزوجها لكي يرثها، ولكن زيادا رفض ذلك، مؤكدًا لها بأنه لن يتخلى عنها، ولكنه سيدلها على أمر هو الأشبه بتحول حياتها لمسار آخر.

اشترى زياد لها كتابًا مترجمًا عن الإسلام، وكتابًا آخر مترجمًا للقرآن الكريم.

وبالفعل بدأت تلك المسنة بقراءة الكتب، وكل يوم تدعو زيادًا على العشاء، ليشرح لها تفاصيل الكتب، لعدم فهمها العميق للمعاني.

كان زياد يشرح لها أحيانًا، وأحيانًا أخرى يطلب منها الانتظار، حتى يستفسر لها عن أشياء، ربما لا يتقن التفسير لها، وبالفعل قد كان.

فوجئ زياد بأن تلك المسنة أسلمت، بل كانت تسبقه إلى المركز الإسلامي يوم الجمعة لأداء الصلاة.

فرح زياد بإسلامها فرحًا لا يوصف.

كانت الأمور في المطعم بدأت تتحسن؛ فقد أصبح المدير في خلال عامين فقط.

وعلاقته الطيبة بجارته المسنة تزداد يومًا تلو الآخر. اقترحت عليه جارته ذات يوم أن يشاركها في إنشاء مطعم لأكلات شرقية، ويكون هو المدير المسؤول، وهي تشرف معه على المشروع.

ـ ما شاء الله، أتدرين أنه شاب خلوق، لم يرد أن يتزوجها، بل ساعدها بلا مقابل، لم ينتظر منها أن تعطيه المال، بل على العكس فقد أمدها بالأعظم، أمدها بنعمة الإسلام.

لم يأخذ، بل أعطى، وأخلص النية في العطاء لله، ففاجأه الله بجود العطاء، يا ألله، يا واسع الفرج.

ـ لم تنته الحكاية، فقد تشاركا في المطعم، وكانت تلك البداية، السيدة المسنة كانت تتعامل معه كأن زيادا ابنها الفعلي، بل كانت تطلب منه أن تحدث أمه في الهاتف بشكل متكرر، بل أرسلت لها الأوراق لتسافر إلى أوروبا.

بالفعل خالتي أم زياد، سافرت هناك، بل عملت معهم بنفس المطعم، خِبْرتها كسيدة عربية في إضافة النكهات على الطعام كانت مميزة، بل أصبح المطعم مشاركة بينهم هم الثلاثة.

وغيروا مكان إقامتهم، وأقام الثلاثة في بيت واحد كبير واسع، ونفم البناء.

دائمًا، كان يردد: " إن الله هو الجبار، سيجبرني ".

ـ نعم، صديقتي، لقد جبر الله خاطره.

-ولكن هو هنا الآن، فماذا حدث.....؟

ـ دوام الحال من المحال، فهكذا هي الدنيا تغير أحوالها، مرضت تلك السيدة المسنة، وماتت بعد شهور.

لم يتوان زياد في مراعاتها، كذلك أمه كانت تراعيها، مراعاة الأخت لأختها.

دفنت، وحزن عليها زياد، كما حزنت خالتي.

فوجئ زياد بأنها تركت وصية، بأن ما تملكه في المطعم يذهب مناصفة بين زياد وأمه.

أما مالها في البنك ومالها في العقار، فهو لأولادها، وعلى زياد أن يعثر على أولادها ليسلمهم ذلك.

أرادت أن يكون الميراث شرعيا، فهكذا الإسلام. فقد تركت مالها لأولادها، بالرغم من أنهم لم يسألوا عنها طوال تلك السنين. وأوصت بالثلث من مالها كما جاء في الشرع.

بالفعل زياد بدأ يبحث عن أولادها، كما بدأ يبحث عن بيت آخر ليقيما فيه هو وأمه، لأن أولاد تلك السيدة المسنة يرثون في البيت. لكن أمه فاجأته بشيء آخر.

لم تعد خالتي ترغب في البقاء بعيدة عن الوطن، لم يعد يعنيها الأمر كله.

وقف زياد صامتًا، وقف يعيد حساباته:

هل أتخلى عن حلمي..؟

هل أتخلى عن كل ما وصلت إليه....؟

يا رب أنت الجبار، دلني، أعني.

كان زياد في ذلك الوقت، بدأ التعرف إلى طبيبة من أصول عربية، مسلمة، محجبة، كانت تعالج أمه من

داء السكري. فبدأ قلبه ينبض بالحب مرة أخرى، وبدأ التعرف إليها، ووجد منها قبولًا شديدًا.

كان الإلحاح من أمه على العودة، يزداد يومًا تلو الآخر. فما كان بيد زياد سوى أن يخبر أمه بحبه الجديد، ورغبته في الزواج منها، ولكنه لا يعلم ماذا يفعل؛ فوعد أمه أنه سيسرع في موضوع البحث عن أولاد السيدة المسنة، لكي يرد لهم مالهم.

ـ يا له من شاب متدين، يخشى الله، يبحث عن أناس آخرين لا يعلمهم، لكي يرد لهم مالهم.

ـ نعم، بالفعل وجدهم، وقام بتصفية المال فأعطاهم المطعم كله مقابل البيت، فقد أراد أن يتزوج فيه. وقد تم

الزواج فعليا بزوجته الحالية، الطبيبة من أصول عربية، المسلمة، المحجبة.

ووفى وعده مع أمه، فقد أعادها إلى الوطن، وذلك بعد أن فتح ذلك الكافيه، حيث نجلس الآن.

وكذلك المطعم في أول البلدة.

ـ وماذا عن زوجته....؟

ـ لا تزال هناك في أوروبا وهو بين زوجته في أوروبا شهورا، وهنا شهورا أخرى.

ولكنه طيب القلب مع كل أقاربه وأصدقائه. ودائما نحكي حكايته هذه في العائلة.

لا يضيقه من الأمر شيء.

ـ طبعًا، صديقتي.. فهو لم يستغل تلك السيدة المسنة في أول حياته، بل رفض الزواج منها، وساعدها، بل أسلمت. كذلك عمل وكد واجتهد، بيده، لم يستفد منها، بل كبر مالها، وسلمه، بعد ذلك لورثتها.

- بارك الله له.

- نعم العمل، ونعم الإيمان.

*****

((الحدوتة الخامسة))

إصرار عبد العليم

عندما نؤمن أن الأرزاق بيد الله .....

لا نخشى شيئاً .....

حتماً سيأتي الرزق، فهو مكتوب .....

أذن المؤذن لصلاة الفجر، واستيقظ الأستاذ "عبد العليم" من نومه ليصلي، وكعادته اليومية يساعد زوجته في إيقاظ أولاده كل واحد منهم على حدة، ليجهزوا ويتهيؤا للذهاب إلى مدارسهم وجامعاتهم، فكان عنده من الأولاد خمسة، أربع بنات وصبي واحد.

كان الأب محبا لأبنائه، صارما في أقواله، يعيش في كنف المبادئ التي يعتبرها البعض قد اندثرت من الوجود.

عندما قررت الزوجة السفر للخارج في عقد عمل لتحسين أحوالهم المادية فوجئت الزوجة بقرار لجنة السفر بأنها ستسافر وحدها دون زوجها أو أولادها فدخل

الأستاذ "عبد العليم" إلى اللجنة، وفاجأهم بكلامه، فقد أثبت لهم بالبراهين والأدلة أن قرارهم خاطئ بالنسبة لامرأة متزوجة، وأنه يُفضل التخلي عن عقد العمل، إذا كان البديل هو سفرها دون أولادها وزوجها.

وأطال في الحديث بجرأة وثقة في الله، بأن الرزق أينما كنا سيأتي لا محالة فكانت زوجته هي السيدة الوحيدة التي اصطحبت زوجها وأولادها معها بعد أن غيرت اللجنة قرارها بشكل استثنائي.

سافروا معًا إلى الخارج، حيث كان وجه من حولهم يعلوه العجب.

كيف استطاع الأستاذ "عبد العليم " إقناع اللجنة برأيه؟

هم لا يعلمون أنه لم يتعلق بشيء سوى ما آمن به، وأصرَّ عليه، خاصة أنه ردَّ كل شيء لله وقدره.

بعد مرور أربع سنوات عادوا إلى القاهرة بأمان الله، وكان الأستاذ "عبد العليم" لا يزال يعيش في جعبة تلك المبادئ، فكان ذلك الرجل الذي يستقطع من دخله الشهري مبلغًا من المال، ويزيده من بعض الأصدقاء، ممن يحبون التصدق على الفقراء مواظبًا على توزيع تلك الأظرف المغلقة وما تحويه من مال شهري على بعض الأسر اليتيمة، أو المعدِمة.

كان زملاؤه أحيانًا ينتقدون تصرفاته في عدم اكتنازه بعض المال للظروف الطارئة في حياته. إلا أن رده الدائم كان واعظًا في حد ذاته:

-(المال مال الله يؤتيه من يشاء)

هل أيقن الأستاذ "عبد العليم" بدرب الفلاح؟

هل آمن به؟ .....

نعم إنه الطريق الذي اختاره بنفسه،

وفرضه على من حوله باحترام.

وعندما كبرت بناته، وأقبلن على الزواج، كان ذلك الرجل هو الوحيد في عائلته، بل الوحيد في الحي كله الذي زوَّج بناته دون إقامة فرح كبير كما يفعل الآخرون.

اكتفى بالوليمة (وليمة العرس) التي تقام في ليلة الحناء، ولم يفرض على أزواج بناته مجوهرات (الشبكة) أو مفروشات معينة، قائلًا لهم:

(كل رجل ينشئ بيته بما يطيق، كل واحد منكم أدرى بما يحتاجه بيته وبما يسعه، وعلى قدر ما تملك أنفق. أما أنا فقد ربيتُ بناتي تربية صالحة، وأصررتُ على تعليمهم أفضل تعليم. أما ما يفعله الناس من حولي، في هذه الأيام، فلا أقبله. بناتي لسن بضاعة، تُباع وتُشترى. ولسنا هنا على مائدة المناقشات، لكي نحدد من سيشتري هذا، ومن سيشتري ذاك؛ فنحن جالسون للاتفاق على بناء أسرة، وليس إنشاء مصنع. جالسون هنا للاتفاق على المعاهدات الروحية، بحفظ كل واحد منهم للآخر)

كان الجميع يستخفون بأقواله في بداية الأمر، يعتقدون أن أفكاره خارج منطق هذا الزمان، وتوقع أصدقاؤه بأن بناته سيتأخرن في الزواج، حتى وإن أفلحت مرة مع إحداهن، فإن هذه المبادئ لن تفلح مع الأخريات.

ولكن من آمن بشيء وعاش على ذلك الإيمان مُرابطًا.... ينال ما تمنى في آخر المطاف...

فقد تزوجت البنات الأربعة زيجات طيبة، وبالشكل الذي أراده الأستاذ "عبد العليم".

حتى ابنه الوحيد، قام ببناء نفسه بنفسه، لم يعتمد على أبيه في أي من نفقات الزواج. زوج الرجل الطيب أبناءه الخمسة بنفس المبدأ، وبعدها بعامين فقط توفي الأستاذ "عبد العليم" بعد مرضه، هذا المرض لم يدم طويلًا، فقد هون الله عليه نفقات العلاج.

حزن الجميع لفراقه، منهم من آمن بأفكاره، ومنهم من لم يؤمن. ولكن الحزن الحقيقي الذي تبقى، هو حزن تلك الأسر الفقيرة، التي فقدت الأظرف الشهرية، التي اعتادت أن تأتيها أول كل شهر.

يُذكِّرني الأستاذ "عبد العليم" بمقولة عظيمة.

(أحياناً يموت إنسان، فتستريح منه الدنيا والعباد

وأحياناً يموت آخر فتحزن عليه الدنيا وخلائقها)

رحمك الله يا أستاذ "عبد العليم".

*****

((الحدوتة السادسة))

ما هو سر انتحاره؟

قد تعيش عمراً .....

وأنت لا تعلم في أي درب تسير .....

وتظن أنك عثرت عليه .....

ولكنك تائه .....

في تلك الأيام الجميلة عندما كنا في الجامعة، كنا نسمع عن أحد الشباب وقد غرَّه الشيطان، فكان يصول ويجول في الذنوب، كان تامر شابا مستهترا، معروفا بإدمان المخدرات والكحول، والحضور في الأماكن المشبوهة.

وعندما كان أحدهم ينطق باسمه على لسانه، يشمئز الآخرون، وكأن اسمه يحوي دلالات الانفلات والذنوب.

ثم تُوفي أحد أصدقائه في حادث أليم، وانقطعت أخباره لسنوات، ثم ظهر في الحي لأرى رجلًا آخر، اختلفت ملامحه، بل اختلفت ملابسه أيضًا فأصبح قريب الشبه بشيوخ المساجد، الملابس البيضاء الناصعة، والوجه البشوش المميز من كثرة الصلاة، واللحية الطويلة المشذبة.

في البداية سخر منه أغلب الناس ظانين أنه مجرد رداء ومظهر شكلي لا أكثر. ولكني دائمًا كنتُ أشعر أنه تغير حقيقي؛ لأن أفعاله كانت طيبة، فكان دائم الإسراع للهفة المحتاج ومعاونة الفقراء على قدر الإمكان.

أرى في عيونكم جميعًا الآن تلك النظرة التي تحمل كل معاني التوقعات بالنهاية الممزوجة بالملل والرتابة.

ولكن الأحداث لم تكن تسير وفقًا للتجارب المتوقعة.

ففي أحد الأيام ودون سابق إنذار، فوجئ أهل الحي بانتحار أحد الرجال من أعلى المبنى، مُلئت الأرض بدماء تامر التي انتشرت تحت أرجل المتفرجين، وأفزعت الجميع.

أدمع وأبكي لأيام على نهايته، كما بكى وترحم عليه الجميع، ولكن لا يزال هذا السؤال يراودني، ويشغل بالي طوال الوقت.

كيف لرجل عرف طريق الحق واختار الصراط المستقيم وحاول التمسك بطرف خيط الفلاح أن تكون تلك نهايته؟!!

هناك شيء خاطئ أو حلقة مفقودة في تلك الحكاية

فلا بد أن تكون هناك قصص وحواديت أخرى تخللت حياته قبل إسدال ستار النهاية له على مسرح الحياة.

بالفعل بدأت أرتدي زي المخبر السري، لأفتش وراء سبب انتحاره، ليس فضولًا، ولكن لأفهم.

بدأت أسأل من أعرفه من أصدقائه وأقاربه وجيرانه.

طرحتُ عليهم سؤالًا واحدًا فقط:

ـ(لماذا انتحر تامر، في اعتقادك؟)

أجابني أحد الأصدقاء أنه كان يعاني من بعض الأزمات المالية، خاصة بعد أن أنجب أولاده، ولم يكن قادرًا على تلبية احتياجاتهم. ولكن حدسي البوليسي، لم يؤيد ذلك أبدًا.

خاصة أنه كان يعمل هو وزوجته معًا في نفس مجال العمل، ولم تشكُ زوجته أبدًا من ضيق الحال قبل ذلك.

أجابني أحد جيرانه أنه كان يُعتقل كثيرًا، ربما لبعض أفكاره السياسيه، فهى تعتقد أنه كان يتناول الحبوب المخدرة، التي سببت له الهلوسة ثم الانتحار.

ولكني أستبعد هذه الإجابة تمامًا فمن عرف طريق الصلاة، والخوف من الله، بعد تجربته الشبابية الأولى مع الانفلات، لا يعود إليها مرة أخرى.

على حين قالت إحدى زميلاته في العمل، بأنه كان دائم الجلوس بمفرده، لا يحب الاختلاط بأحد، قليل الكلام، وسمعتْ أنه كان يُعالج نفسيًّا.

مللت عن البحث، وتوقفت عن سؤال الناس، وعن البحث عن سبب انتحاره، فيبدو أن الجميع يختلق الأسباب والإجابات وفقًا لرؤيته الخاصة وأن هذا الحديث يبعدني

أكثر عن الحقيقة المجهولة فالتزمت الصمت عن هذا الموضوع، حتى نسيت تمامًا.

وبعد مرور سنوات ليست بالكثيرة أقابل صدفة أحد الأصدقاء، وقد كان أعز أصحابه المقربين، ويتعامل معه بصورة مباشرة، هذا الصديق يكبرنا عمراً بعشر سنوات تقريبًا، بل أكثرنا خبرة وفهمًا للحياة.

عندما بدأ الحديث عن تامر، ظللتُ أستمع له دون توقف.

وسرد شريط حياته منذ البداية حتى يوم الوفاة.

وعندما سألته في نهاية الحوار:

(لماذا انتحر تامر في اعتقادك الشخصي؟)

أجابني بكلمات لم أكن أتوقعها، ولم تخطر ببالي إطلاقًا.

-(عاش تامر تابعًا طوال الوقت)

-(تابعًا! كيف؟)

-(نعم، كان تابعًا في شبابه لهولاء المندفعين في المعصية، يلهو ويمرح دون حساب، ودون إدراك وعندما تُوفي أحد أصدقائه، نقل تلك التبعية لبعض الشباب الملتزم دينيا وأخلاقيا، لا أنكر أن ذلك كان رائعًا، ولكنه لم يُدرك مبدأ ذلك الالتزام، ولم يعِ، ولم يوازن أفكاره، فيقبل منها ما يناسبه، ويرفض ما لا يقبله عقله وقلبه. ربما لم يستطع أن يصل إلى الوسطية المريحة. أو لم يُدركها، فظل يضغط على نفسه، ويحملها ما لا طاقة له بها. فديننا

يدعو إلى الوسطية، فلا تشق على نفسك حتى تكل وتتعب من أبسط الفروض.

وأخيرًا وجدتُ الإجابة عن ذلك السؤال اللعين:

"لماذا انتحر تامر..؟"

لم يجد تامر طريقه للفلاح، تخبط كثيرًا بين عدة طرق، ولم يؤمن بمبدأ أو هدف حتى يظل ثابتًا عليه حتى يصل إلى الفلاح في النهاية.

ولا نملك الحكم عليه (حاشا لله)

لا نعلم من الأقرب منا إلى الله، ربما يشفع له الكثير من العمل الخفي، الذي كان بينه وبين ربه، رحم الله تامرًا وأسكنه فسيح جناته.

((الحدوتة السابعة))

أبنائي الأعزاء

ربما تضطرنا الظروف إلى .....

قرارات صعبة لم تكن في الحسبان .....

ثم نحمد الله أننا اتخذناها .....

كان المهندس "أحمد" يعمل في الخليج في أواخر السبعينيات في مجال البترول، حيث ينظر له الجميع ما بين غبطة وحسد.

وفي كل إجازة صيفية ينزل إلى القاهرة، فيتلاحق أقاربه لزيارته، ومنهم أنا ووالدتي.

كان كل أقاربنا يشيرون إليه بالبنان، لثرائه الواضح عليه وعلى أسرته.

فوجئنا في إحدى السنوات بوفاة زوجته في سن صغيرة، لا تتعدى الأربعين بعد مرضها الشديد الذي أصابها فجأة.

ربما لعب الحسد دورا كبيرا في ذلك، ولكنه في النهاية قدر الله.

تركت وراءها خمسة من الأبناء، صغارًا، لا يتجاوز أكبرهم الحادية عشرة من عمره.

حضر الجميع لمواساته، ومؤازرته، والوقوف بجانبه، فقد كانت صدمة عصيبة عليه هو وأولاده.

ثم انصرف الجميع وبات الحزن يحفهم وحدهم في المنزل.

كان من السهل في ذلك الوقت على المهندس أحمد أن يأخذ القرار بالزواج من إحدى الأرامل أو المطلقات لمساعدته في تربية أبنائه الصغار، فجميعهم لا يزالون في

مرحلة الدراسة ناهيك عن طفلته الصغيرة التي ما زالت تحبو على الأرض.

ولكن الأب جمع أولاده الصغار، أبلغهم بقراره، بأنه سيترك العمل في الخليج، ليظلوا معًا هنا في القاهرة.

وأودع كل أمواله التي رُزق بها من عمله في كل تلك السنوات في البنك، لينفق من ريعها.

لم يكن ذلك بالقرار السهل عليه، فقد كان لا يزال شابا، يقوى على العمل، بل يهواه ويحبه، ولكنه كان بين خيارين، الأول هو الاستمرار في العمل، ولكن دون رعاية أبنائه، فسيضطر لتركهم لأقاربهم لرعايتهم.

والخيار الثاني والأصعب وهو ترك العمل، والبقاء مع أولاده، لتربيتهم واحتضانهم بديلًا عن أمهم خاصة أنه كان يمتلك المال الذي سيسعى جاهدًا لأن يكفيهم حتى ينتهوا من دراستهم.

وبالفعل اختار المهندس أحمد الخيار الأصعب، واستقال من عمله في الخليج، وبدأ يعد العدة للبقاء في القاهرة.

اجتمع بأولاده وبناته ليوزع عليهم أدوارهم في المنزل، لكي يحمل كل منهم حمولته.

تلك الحمولة المخففة نوعًا، لأن العبء الأكبر كان على كاهل هذا الرجل العظيم.

وتمر السنون وراء السنين، وبدأت أنوار الطريق الذي رسمه المهندس محمد لأولاده تضيء؛ فها هما الابنة الكبرى وأخوها الذي يليها يلتحقان بكلية الطب.

أما الأخ الأوسط وأخوه الأصغر فها هما يلتحقان بكلية الصيدلة.

فواجه الأب حينئذ مفاجأة لم تخطر على باله، فقد قرر الأخوان ترك كلية الصيدلة والسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية كباقي الشباب الذين يأملون في ذلك.

شعر الأب أن طريقهما سيأخذ مسارًا آخر عما كان يتمناه وبدأ الصراع بين الأب وولديه على البقاء لإنهاء دراستهما، ولكن إصرار الشابين كان مُلحا وقويًّا، لم يستطع الأب إلا أن يفكر لهما ليحافظ على مستقبل أفضل

لهم، حين أشار عليهما بتأجيل الدراسة بشكل رسمي، لحين عودتهما من تجربة السفر هذه، أو لحين التأكد من سلامة وجودهما في أمريكا وحياتهما هناك بشكل لائق.

بالفعل شعر الشابان بالسعادة، لتفهُّم والدهما لأحلامهما.

لم يكن لدى المهندس أحمد خيار آخر، كان لا بد له أن يتفهم أحلام أولاده، كل العائلة ظنت أنه سيقف أمام سفر ولديه، خاصة بعد كل تلك التضحيات التي قدمها لهما، وكل المعاناة التي عاشها رجل في شبابه، يطبخ، ويغسل، وينظف البيت لخمسة أولاد.

ربما تفهمه، كان سر النجاح التالي لهم.

فقد أصبح الأخ الأكبر جراحا مشهورا، والإبنة الأصغر منه أستاذة في الجامعة، والأخوان لا يزالان في أمريكا حتى يومنا هذا، أسمع عنهم أطيب الأخبار، والفتاة الصغرى طبيبة جميلة وأم لثلاثة أبناء.

رأى المهندس أحمد ثمرة كفاحه قبل أن يتوفاه الله، فقد رابط وتشبث بطريق فلاحه إلى آخر يوم في عمره.

شهد له أبناؤه وبناته، بأنه قد وفى لهم وكفاهم صعاب الحياة.

حزنوا عليه حزنًا شديدًا بعد وفاته كما حزن الجميع من حولهم، إلا أن الحقيقة الباقية التي لا تزال باقية تُحكى هي أن إصراره على الكفاح كان دربه للفلاح.

((الحدوتة الثامنة))

حكاية زُهرة

يعتقد البعض أن الأنثى .....

زجاج هش .....

قد تكون زجاجا في رقتها .....

ولكنها تذبح في حدتها .....

أرسل الموجه لي ذات يوم جواب انتداب ثلاثة أيام إلى معهد آخر، لأحل محل مُدرسة أخرى في إجازة، وبالفعل نفذت هذا الندب.

وفي ذلك المعهد كانت بداية معرفتي ب" زُهرة "، صاحبة الأمل والبهجة، هكذا يسمونها في المعهد.

نظرتُ إليها بغبطة شديدة، كنت فرِحة بوجهها البشوش، وروحها المرحة، حضورها فعال، ونفسها طيبة.

لاحظتُ حب الجميع لها، وتقديرهم أيضًا.

ظننتُ في قرارة نفسي، أنها نالت كل طيب الحياة لتصل إلى ذلك الظهور البراق.

وقفتُ معها طوال اليوم الأول لي، لا أعلم كيف تدفق الحوار بيننا بهذه السرعة، كلام كثير، وأحاديث كثيرة بيننا خلال الثلاثة أيام.

قصَّت زُهرة لي قصة حياتها، كنتُ أستمع لها بشغف شديد، أريدها أن تكمل حكايتها مع الحياة.

أتمت زُهرة دراستها بتفوق، كأي شابة مجتهدة وملتزمة في الجامعة، لتبدأ مشوار حياتها، بزواجها من أحدهم.

نعم أقصى ما يقال عنه إنه (أحدهم)، فهو يستحق هذا اللقب، فقد تخلى عنها وهي حامل في ابنهما الوحيد الذي يبلغ الآن السابعة عشرة.

أحب وعشق تلميذته الصغيرة، وألقى عن عاتقه تلك الزوجة، الناضجة، المثقفة، وغلبه هواه، فتزوج من تلك التلميذة التي تصغره بسنوات.

ولم تجد زُهرة طريقا آخر، سوى الالتفاف والعودة إلى بيت أبيها، بعد زواج لم يكمل سوى عامين.

(أحدهم) تزوج من المراهقة الصغيرة، وأراد العبث بمستقبل زُهرة حين رفض طلاقها، كما رفض إعطاءها أي حق من حقوقها المدنية، لها أو لمولودها الصغير.

تلك القصة المتكررة في محاكم الأسرة كل يوم.

ولكن زُهرة اختارت مسارا آخر لتلك القصة، بعد أن خذلها محاميها، الذي وكلته في قضيتها، حين باع حقوقها للخصم.

وجدت تلك الأنثى الضعيفة التي لاحول لها ولا قوة نفسها وحيدة بلا أي حقوق.

قررت زُهرة دراسة الحقوق، وبالفعل بعد أربع سنوات من التفوق في كلية الحقوق، تخرجت بتقدير جيد جدًّا.

كان ذلك أول انتصار لها في معركة الحياة .....

وقفت زُهرة بنفسها في ساحة المحاكم بعد أن قررت أن تكون هي المحامي لنفسها، صارعت من أجل استرداد كل حقوقها التي سُلبت منها.

لم يخذلها ربها، وكيف تُخذل، وقد توكّلت على خالقها، وكافحت، واستمرت في طريقها بلا يأس أو ضعف.

تمكنت أخيرًا من الفوز بكل تلك القضايا المعلقة، ولم يكن انتصارها في ساحات المحاكم، واستردادها لحقوقها هي النهاية، بل كانت البداية لدرب الفلاح الذي اختارته..

تولَّد في قلبها إحساس العطاء الذي لا ينتهي، أرادت أن تساعد من حولها، لتحفزهم إلى طرق النجاح، وتدفعهم إلى حياة أفضل، فتعمقت في دراساتها في مجال التنمية البشرية بشكل رائع حتى أصبحت الدكتورة زُهرة سفيرة التحفيز.

تخللت كل تلك السطور البسيطة أيام وليالٍ شاقة مرت بها زُهرة، بل سخرية البعض من حولها كلما فتحت لنفسها مجالًا جديدًا للدراسة، فكلما تقدمت، كثرت

العثرات أمام طريقها، أحيانًا يُصيبها الإحباط قليلًا، وذلك بالطبع يأتيها من هؤلاء السلبيين الذين يستكثرون على البعض النجاح تلو النجاح.

ولكنها تعافر وتسبح بين تلك الأمواج العاتية، لتصل إلى مُرادها، حتى أصبحت المعلمة الفاضلة مُربية الأجيال، والمحامية الذكية، والدكتورة زُهرة سفيرة التحفيز في آن واحد.

أشعر بالفخر أني صديقة لها.....

وأسعد كثيرًا حين أستمع للقاء لها في المذياع.....

أو في أحد البرامج التليفزيونية.....

*****

((الحدوتة التاسعة))

حدثتني أمي

كنت أزور أمي يوم الجمعة كعادتنا، بارك الله لنا فيها، ودار حديث بيني وبينها حول التعليم ومشاكل المعلمين هذه الأيام، وكيف أن المعلم أصبح أقل شأنًا، فلم يعد يحترم الطلبة معلميهم.

ولم تعد هيبة المعلم كما كانت في السابق.

فهزت أمي رأسها، معلنة الموافقة على ما أقول قائلة:

"من علمني حرفًا، صرت له عبدًا "

هكذا قالها غانم.

ـ من هو غانم يا أمي؟

ـ كان لغانم قصة كبيرة.

ـما قصة غانم يا أمي، وهل هي حقيقية؟

ـ نعم، يابنتي.

ـاحكي لي حكايته؟

ـ كان غانم طفلًا فقيرًا، ولد في أسرة فقيرة، لا تُعلّم أبناءها، بل يستعينون بهم في العمل في فلاحة الأراضي. لم تكن تلك الأراضي ملكًا لهم، بل يعملون لدى غيرهم باليومية.

وهو في سن السادسة، كان ينظر إلى التلاميذ، وهم ذاهبون إلى المدرسة، بزيهم المدرسي.

تمنى أن يكون معهم، يحمل حقيبته، ويكتب دروسه.

ولكن أباه لا يملك ما يعلمه به، لا يملك أن يشتري له الحقيبة، وهذا كان واقعًا في الخمسينيات من القرن الماضي.

اكتفى غانم بالنظر لهم بحسرة، ذرف دموعه على خديه، وقال لأبيه:

- " لماذا لا أحصل على حقيبة مثل هؤلاء؟

فأجابه أبوه:

" لا أملك ما أعلمك به يا بني "

ـ لماذا يا أبي؟

ـ لأني فقير.

ـ لماذا أنت فقير؟

ـ لأنه قدر كتبه الله علي.

ـ لماذا لا نغير هذا القدر؟

ـ حرام، هذا حكم الله.

ومرت سنوات على هذا الحوار، ولكن غانما لا يزال يناقش أباه في تعليمه.

غانم لا ينسى أحلامه عن التعليم، أصبح عمره خمسة عشر عامًا، ثم يسأل أباه نفس السؤال.

ولكن أباه أخبره بأن أخواته السبعة الصغار يحتاجون إلى المال من أجل الطعام والكسوة، وهو لا يستطيع أن يقدم له هو وأخواته أكثر من ذلك.

فطلب منه غانم أن يتركه يجرب حظه، فسأله أبوه: كيف ستفعل ذلك؟

فقال له غانم بأنه سيذهب إلى الشيخة سلمى، كي تحفظه القرآن.

ـ من أين ستأتي بالمال، يا غانم؟

ـ سأطلب منها أن تحفظني القرآن مقابل خدمتها.

ـ هل ستوافق....؟

ـ سأجرب يا أبي.

ـ أعانك الله على حلمك، يا بني.

بالفعل، أسرع غانم إلى الشيخة سلمى، لتقوم بتعليمه القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم.

وكان يعمل في خدمتها مقابل تعليمه.

شعر غانم بالفرحة الكبيرة أنه يمسك اللوح ليكتب عليه آيات القرآن.

لم يشعر بالأسف أنه يقوم بالخدمة مقابل التعليم وحفظ القرآن.

ختم القرآن في أربع سنوات، وتعلم القراءة والكتابة.

ولأن عمره كان ثمانية عشر عامًا، لم يستطع الالتحاق بالمدرسة، إلا من خلال التعلم المنزلي.

وأثبت جدارته وذكاءه، فقد كان يجمع سنوات عدة في سنة واحدة.

وبالفعل، التحق غانم بجامعة الأزهر.

وكان مميزًا بين زملائه الذين يصغرونه سنًّا.

نجح بتفوق كبير، بل عمل في مجال التعليم.

وذهب بعثة إلى الخارج، ليقوم برسالة التعليم والدعوة.

مرت سنوات، واستقر غانم في بلاده، وأرسل لأبويه المال الوفير لتعليم أخواته، وبناء منزل كبير.

كما اشترى لأبيه أراضي زراعية كي يمتلكها، ويعوضه عن أيام الشقاء.

لم ينس غانم الشيخة سلمى، سأل عنها، فوجدها كبرت في العمر، وتوقفت عن التحفيظ.

هرمت الشيخة سلمى، حزن غانم عندما رآها وقرر أن يراعيها، ويتولى تكلفة علاجها.

كان غانم دائم الترديد:

" من علمني حرفاً، صرت له عبداً "

المعروف أن تلك مقولة قديمة، ولكن غانما آمن بها.

بل عمل بها طوال حياته.

ظل غانم مواظباً على زيارة الشيخة سلمى، وذات يوم، بعد أن قام بتقديم الأفطار لها وأعطاها دواءها، لفظت أنفاسها الأخيرة بين يديه.

بكى عليها بكاءً شديدًا، كأنه أحد أبنائها.

غانم لم يستسلم عن تحقيق أحلامه، حاول بكل الطرق والوسائل، لكي يحقق ما يتمنى.

كل الظروف المحيطة به كانت غير مناسبة، خلق دوافع وحققها بأمر الله.

أعزه الله إن كان حيا، ورحمه الله إن كان الله قد تغمده في رحمته وتوفاه.

*****

((الحدوتة العاشرة))

ماذا عساي أن أفعل

تأتيك رسالة ربانية،

لا تعي معناها إلا بعد حين،

أحسنْ استقبال الرسائل الربانية.

ذات يوم حدثنا جارنا بسر، لم يكن ينوي الحديث فيه، إلا بعد إلحاح شديد.

كان ذلك الجار جديدًا في الحي، انتقل هو وأسرته منذ ثلاث سنوات فقط.

زوج، وأب لثلاثة أبناء، يذهب كل صباح إلى عمله، وهو عائد إلى بيته تنهال عليه الطلبات من البيت، يا أبي نريد كذا وكذا من محل البقالة، ويبدأ الأب الطيب البحث عن مراد أبنائه حول البيت.

وذات مرة وهو عائد إلى البيت، لاحظ جارته المسنة تسير بعيدًا، وهو يعلم أنها لا تخرج من البيت أبدًا. فخاف عليها، وظل يسير وراءها، حتى يطمئن عليها.

فلاحظ أنها تبتعد عن المربع السكني الذي يقطنون فيه. فزاده الأمر حيرة، فصمم على المكوث على بعد، يراقبها.

وبالفعل لاحظ شيئًا مريبًا، تلك المسنة تتسول المارة.

-يا للأسف! ماذا يحدث؟ لا أعلم، لماذا تفعل ذلك؟ فهي تسكن في مسكن فَارِه، ليس بالبسيط، كذلك أبناؤها في وظائف مرموقة.

لم أعِ كيف التصرف؟

انصرفت، وعدت إلى بيتي، صامت معظم الوقت.

فقط أفكر، لماذا تفعل ذلك؟

هل أخبر أبناءها؟

هل أسكت ؟

ماذا لو تسببت لها في مشكلة؟

ماذا لو حبسها أبناؤها في البيت، أو وضعوها في بيت للمسنين؟

هي لم تفعل ذلك طيلة حياتها، هكذا أراها.

ولكن مهما كان السبب، هل أستطيع حل تلك المشكلة دون الرجوع إلى أبنائها، فأنا أستشعر غلظتهم؟

ذهبت في صباح اليوم التالي، إلى طبيب نفسي، أسأله، أستشيره في ذلك الأمر.

ولكني أصبحت في حيرة أكبر، فقد سألني الطبيب عن أشياء كثيرة عنها لا أعلمها.

لا يستطيع التشخيص دون معرفة معلومات مهمة عن حياتها، ولكن ما خرجت به في تلك اللحظة، أنها مريضة مثلما يمرض الآخرون.

عدت لنفس التفكير، والحيرة من أمري.

هل أخبر أبناءها أم أكون معاونًا لها؟

ظللت هكذا، ولم أصل إلى حل يرضيني.

ذهبت إلى عملي، وأنا عائد كعادتي، أبحث في المربع السكني عنها لم أجدها، حمدت الله لعلها لن تفعلها مرة أخرى. ثم ابتعدت قليلًا لأشتري بعض المتطلبات للبيت فإذا هي أمامي في شارع شبه خال تتسول ثانية. حزنت، ولكنني هذه المرة، قررت أن أقترب منها.

سألتها:

ـ ماذا تريدين يا سيدتي؟

ـ أريد خمسة جنيهات فقط.

ـ لماذا...؟

ـ أريدها من أجل المواصلات، فأنا أسكن بعيدًا.

كدت أبكي أمامها، فهى تسكن العمارة المقابلة لي، وكنت أراها طوال ثلاث سنوات، وهي تشرب القهوة بأناقة ورقي في الشرفة.

يا لهذا الزمن، تُرى، ماذا حدث لها جعلها هكذا؟

ثم أعطيتها خمسة جنيهات، وقلت لها بأني سأوصلها إلى البيت. فسألتني إن كنت أعرف بيتها، فأجبتها بأنني صاحب ولدها، وأعرف البيت جيدًا.

وبالفعل ربتُّ على يدها وأمسكت بيدها، وعلقت يدها في يدي، فنظرت لي نظرة مبتسمة، كأنها تقول لي:

ـ كنت أحتاجها منذ فترة، نعم أحتاج لهذا الاهتمام، أحتاج لتلك اليد لتأخذ بي، أحتاج لهذا القرب من أحد.

لم يكن حوارا، فقد كنا صامتين أغلب الوقت. ولكنه حوار نفسي مليء بالعاطفة والأحاسيس.

أوصلتها إلى بيتها، حتى دخلت شقتها، وظللت أغلب اليوم أراقبها من الشرفة، خائفًا عليها أن تنزل مرة أخرى.

ولكن اطمأننت عندما رأيتها تتحرك بطبيعتها المعتادة لها سابقًا، في شقتها ذهابًا وإيابًا.

قبل أن أضع رأسي على وسادتي، لكي أخلد للنوم، وجدت الحل، أخيرًا سوف أبحث عنها كل يوم، وأعيدها الى بيتها.

بالفعل قد كان، كل يوم وأنا عائد من العمل، أقوم بهذه المهمة، أعطيها خمسة جنيهات وأمسك بيدها وأعيدها إلى بيتها.

ظللت على هذا الحال أياما وشهورا، كنت أخاف عليها عندما أكون في إجازة.

وأحاول النزول لنفس المكان، حتى أقوم بمهمتي.

مرت ثمانية أشهر، ونحن على هذا الحال.

ذات يوم، لاحظت وجود ضجة وحراكا كثيرا في شقتها، فوقفت مراقبًا لما يحدث.

علمت أنها فارقت الحياة.

ماذا أقول....؟

لا أعرف سوى ذهابي إلى العزاء بعد صلاة العشاء. قدمت واجب العزاء أنا وزوجتي.

حزنت عليها جدًّا، شعرت أني فقدت شيئا اعتدت القيام به.

في صباح اليوم التالي وأنا عائد من عملي، وجدتُ نفسي أقوم بالبحث عنها، نسيت ما حدث للحظات.

إني أفتقدها، وبشدة.

ينقصني شيء، لا أعرفه، ولكني أحتاج إليه، ولكن للأسف، فهو لم يعد موجودًا.

بينما كنت أتناول الغداء مع أطفالي، أخبرتني زوجتي أنهم وجدوا عند تلك السيدة صندوق هدايا مملوءًا بالكثير من النقدية فئة خمسة جنيهات. ولا يعلمون لماذا كانت تحتفظ بها.

تسمرت شفتاي عن الكلام. لاحظت زوجتي هذا، فأخبرتها، فقط كنت متأثرا بعض الشيء.

زوجتي لم تكن تعلم شيئًا عما حدث. فقد رحلت، ورحل معها سرها.

ثم بدأت أواصل حياتي بشكل روتيني، ولكني غير سعيد، ينقصني شيء، كما أني أراها في أحلامي.

ثم بادر إلى ذهني خاطر غريب. ربما لم أكن أنا العون لها، كنت أعتقد أني صاحب الفضل عليها، لما فعلته معها. ربما كانت هي صاحبة الفضل علي، فقد كنت أشعر بالسعادة وأنا أعطي، وأنا أبذل الجهد من أجلها.

نعم، العكس صحيح، هي من أرسلها الله لي ليعلمني البذل والعطاء.

هنا كانت البداية، قررت أن أتصدق، وأبذل الجهد حتى أستشعر السعادة.

*****

((الحدوتة الحادية عشرة))

قرار صعب

تحاول أن تفعل الصواب.....

بل تؤمن به.....

فتواجهك الصعاب.....

لتحيد عنه.....

ولكن صلابة إيمانك به .....

تحميك.....

كان يوم التكريم في المدرسة للطلاب المتفوقين دراسيا والمتميزين أخلاقيا، وقفتُ مع زملائي في الفناء لمشاركة الطلاب فرحتهم، كان تلميذي عبد الرحمن من الطلبة الذين كُرِّموا، لتميزهم العلمي والأخلاقي.

عندما دخلنا الفصل لمواصلة الحصص الدراسية، هنأتُ عبد الرحمن، وطلبت منه أن يشكر والدته، التي كانت تصطحبه في الحفل، بكل حب واهتمام بالغ.

فصدمني عبد الرحمن:

-(هي ليست والدتي، يا أستاذة)

ـ (إذن، من تكون تلك السيدة الفاضلة، يا عبد الرحمن؟)

ـ(إنها زوجة عمي)

ـ(وأين أمك يا عبد الرحمن؟)

ـ(إنها في المنزل مع عمي لأنه مُصاب بالبرد اليوم؟)

توقفت عن التنفس، وتاه عقلي.

ـ(زوجة عمك معك في الحفل، وأمك مع عمك في البيت لأنه مُصاب بالبرد!)

ـ(أريد أمك، أقصد زوجة عمك أن تأتي فورًا غدًا)

ـ(أيهما تريدين يا أستاذة؟)

ـ(أي واحدة يا عبد الرحمن، أي فرد من عائلتك!)

ظللت طوال اليوم، أخمن أن هذا الولد خياله واسع، وأنه يؤلف قصصًا إلى أن جاءت تلك السيدة التي كانت معه في الحفل، لمقابلتي في اليوم التالي.

ـ (أهلا بكِ يا سيدتي، ما هي صلة القرابة بينك وبين عبد الرحمن؟)

-(لماذا؟ هل فعل شيئا؟)

ـ(أرجوكِ أجيبيني؟)

ـ(أنا أمه)

فبدا على وجهي العجب والحيرة، فصمْتُ والتوت شفتاي، وسكن لساني عن الكلام.

ـ(أنتِ أمه!)

ـ(أقصد مثل أمه، فأنا زوجة عمه)

فتنهدتُ تنهيدة طويلة، وتنفستُ قليلًا.

ـ(أعلم أنك في حيرة، يا أستاذة، سأروي لكِ حتى تفهمي كل ذلك التشابك التي ترينه محيرًا)

طلبتُ منها الجلوس، وبدأتُ أستمعُ لما ترويه من كلام.

ـ (لا أعلم من أين أبدأ يا أستاذة.

إنها قصة طويلة، تزوجت هشام عن حب، وليس حبا عاديا، كان حبا وُلد بعد الزواج، ولكنه غلب حب العاشقين، سلمتُ له كل عمري وعالمي.

ولكن الرياح أحيانًا تأتي بما لا تشتهي السفن فقد قُدر لنا عدم الإنجاب، أنا المشكلة، لا أستطيع الإنجاب، حاولنا بكل الطرق، ولكني لا أملك سوى الرضا بقضاء الله وقدره.

قررتُ منذ ذلك الوقت، أن أربي أولاد أخي زوجي. أكبرهم عبد الرحمن، نشأت محبة بيني وبين ذلك الطفل الجميل، والدته تعمل لوقت متأخر، فكانت تتركه لي طوال اليوم منذ ولادته، حتى إن عبد الرحمن يعدني أنا أمه الفعلية، هو لا يتركني إلا إذا حلَّ المساء، لينام مع أمه وأبيه.

ذات يوم كان أبوعبد الرحمن يركب دراجته البخارية، مُتجها لشراء بعض الطلبات. فاصطدمت الدراجة البخارية بسيارة نقل، فتوفي أبو عبد الرحمن في ذلك الحادث.

وأصبح عبد الرحمن يتيم الأب.

كان زوجي لزامًا عليه، أن يُراعي زوجة أخيه، ويلبي لها طلباتها هي وأولادها خاصة أن أخاه كان يصغره سنا بسنوات وأنت تعلمين، عُرف الأرياف، الرجل يتزوج أرملة أخيه. لم أكن من اللواتي يصرخن، أو يعترضن على ذلك الأمر لأن هناك أمرًا لا أستطيع أن أنكره، أو أتغافل عنه، فأنا عاقر، عاقر فعلًا)

ـ(لا، لا تحزني حبيبتي. هوني على نفسك)

ـ(أنا لستُ حزينة، أنا راضية، فأنا التي طلبت منه ذلك.

طلبت منه أن يتزوج من أرملة أخيه!

"بيدي لا بيدي عمرو"

أردتُ أن أسعده،

أردتُ أن ينجب له طفلًا من صلبه،

أردت ألا يتخلى عن أرملة أخيه.

أردت أن يظل عبد الرحمن معي، فأنا لا أقوى على مفارقته. اتهمني الجميع بالجنون. حتى أهلى وأصدقائي أخبروني بأني سأندم على هذا القرار.

لم يكن لي خيار آخر أقسم بالله لم يكن لي خيار آخر.

لا بد أن أرضى، وأتعايش مع تلك الحقيقة المُرة، أعلم أن الله سيعوضني.

أنا على ثقة كبيرة، فحياتي كلها توكل على الله.

وهل لي خيار آخر؟)

ـ(كيف استسلمت بهذه الصورة؟، أراكِ جميلة الوجه، في ريعان شبابك، لم تكوني مضطرة لأن تلجئي لهذا الحل)

ـ(أنتِ لا تعلمين مدى حبي لزوجي هو إنسان جميل يحبني ويحترمني بشدة، بيننا شيء لايمكن أن يُوصف حظي في دنياي كان زواجي منه.

أما عدم قدرتي على إنجاب طفل له، فكان البلاء الذي لحق بسعادتي، ليقتلها)

بكت بشدة، حاولتُ أن أهدئها، وطلبتُ منها عدم الكلام في الوقت الحالي، لكنها أرادت مواصلة الحكاية:

ـ(أتعلمين يا أستاذة! لو أراد جزءا من جسدي لأعطيته له حتى دون أن أفكر، فكيف لا أسمح له بالزواج من أجل أن يُرزق بولد؟! فهذا شيء يسير)

ـ (أنتِ استثناء، يا أم عبد الرحمن، اسمحي لي أن أناديكِ بهذا الاسم، فأنتِ تستحقينه، حتى ولو لم تكوني أمه التي أنجبته بالفعل)

ـ(شكرًا لكِ، سمحتُ له بالزواج من أرملة أخيه، بل دفعته دفعًا لذلك. وعلي أن أعترف أنه واجهني في البداية،

وعنفني على ما أفعل، ولكن هشاما في النهاية كأي رجل يحن إلى الأبوة.

وافق، وبالطبع قد رحب أبوه وأمه بذلك كثيرًا حتى يصون أولاد أخيه الصغير المُتوفى، كما أن هناك مصلحة أخرى لابنهما وهي الإنجاب.

تم الزواج وفي أول أسبوع أخذت عبد الرحمن وأخواته البنات معي إلى بيت أهلي، حتى لا يكون هناك حرج بينه وبين أرملة أخيه)

ـ(اعذريني لمقاطعتك ولكني أحييكِ الآن على ذكائكِ الشديد أنا أنظر إلى وجهك الجميل الآن. فأنتِ الأجمل. أليس كذلك؟)

تبسمت قليلًا ثم نظرت إلي قائلة:

ـ(كم من امرأة شديدة الجمال والحسن، تزوج عليها زوجها. ألم تسمعي عن هذا من قبل؟!)

ـ(نعم، قصف جبهة لي)

ـ(عزيزتي الأستاذة، إنه الحب، أنا على يقين من حبه لي، وعلى يقين أكبر من حب الله لي، فقد حرمني الله من الإنجاب، وأعطاني حب الزوج الصديق، السند، الرجل بكل معاني الرجولة الجميلة.

أيحرمني الله من الاثنين، حاشاه، فهو العدل.....

نعم، هو العدل، يمنع ويعطي، ويعطي ليمنع

فوجدتُ نفسي أصفق لها دون شعور.

ـ(ما أروعك وما أروع طيب كلامك، بالفعل أي زوج هذا الذي يتخلى عنك، أو يفضل إحداهن عليكِ؟!)

ـ(شكرًا لك. عدتُ إلى بيتي بعد أسبوع معاناة من كثرة اللوم الذي كان أهلي يلقونه على عاتقي، فقد أمضيت أسبوعًا كاملًا في بيت أبي بعد زواج دام عشر سنوات، لم أبت فيه ليلة واحدة خارج بيتي أو بعيدًا عن هشام، كان قلبي يعتصر، لم تغفل عيني سوى ساعات قليلة. اصطحبت أولاد (ضرتي)، وعدتُ إلى بيتي، أطير طيرًا من الفرح لعودتي.

ولكني صُدمت حين تخلى عني الأولاد، وجروا إلى أمهم، ليرتموا في حضنها، بعد أن تعبت معهم أسبوعا كاملا ألاعبهم، وألاطفهم.

رحب بي هشام، ولكن دون أن ينظر إلي في عيني، وكأنه خجل من مواجهتي.

سيل من الدموع على وجهي، فوجدته يحتضنني بشدة أمام زوجته، فلاحظت الغيرة الشديدة تظهر على وجهها؛ فقد نسيت أنه زوجي)

ـ (يا لجرأتها، قلتُ لكِ أنتِ مثالية، ولكن من حولك ليسوا ملائكة)

ـ (الحمد لله، ثقتي بالله لن تضيعني. بدأت معي ألاعيب شيحة، وأنا لستُ كذلك. مرت أيام وليالٍ وهي تحاول أن تطغى على أيامي بحجج كثيرة، أنها تعبة، ومحتاجة إليه، وأحيانًا تُريده في موضوع هام لا يحتمل التأجيل. بدأت أضجر، ولكن لم يبدُ على وجهي أي ملامح

الغضب أو العتاب؛ فأنا مشغولة بتعليم الأولاد (أولادها)، فهى لا تعرف شيئًا عن تعليمهم، أو دراستهم فهذه مسؤليتي أنا منذ كان زوجها حيا يُرزق فهم أولادي أنا

هذه حقيقة، وحبهم لي ليس تمثيلًا، الأطفال لا يعرفون الكذب، ويشعرون بمن يحبهم.

بدأت أتغاضى عن كل شيء تافه تفعله، لأنني أدرس أيضًا فأنا مشغولة، كما أنني مهتمة بالقراءة، ولا أستوعب كلام النساء وثرثرتهم، فهذا طبعي منذ صغري.

وذات يوم كنت وأنا نازلة من شقتي في الطابق الثالث سمعتها على باب شقتها في الطابق الثاني تتحدث في الهاتف الجوال مع إحداهن بصوت مسموع، ليس من

طبعي أن أقف لأسمع. ولكني تسمرتُ في مكاني، حين بدأت أعي ما تقول.

وجدتها تحكي ملاطفة زوجي لها بشكل لم أعرفه منه منذ عشر سنوات، وتقول لها بأنه بدأ يحبها هي، فأنا محترمة وجادة، أكثر من اللزوم كانت تلك الكلمات أشبه بالسياط التي تضربني كانت تزلزل قدمي، دخلتْ بيتها ولم ترني.

وجدتُ نفسي أسير في الطرقات دون أن أشعر إلى أين وصلت حتى وجدتُ نفسي قد مرَّت علي أربع ساعات، أسير على قدمي دون أن أشعر. وصلت بلدة أخرى بجوارنا، فجلست على تلك المقاعد أمام النيل صامتة، غير قادرة على الكلام، لا يهمني أنه تزوج، لا

يهمني أن يبقى معها فترة أطول. ولكن ما يُوجعني حقا هو أن يكون إحساسي كاذبا، لا أستطيع أن أتخيل أني كنتُ موهومة كل ذلك الوقت. زوجي هشام يحبني أنا، أنا معشوقته. يا ربي، قلبي يعتصر يا ربي هون علي. كل حياتي أرجعها لك يا ألله. أنا رضيتُ بما قسمت لي، ولا أنقم على أحد ولكني أعلم أنك العدل.

مرت امرأة من جواري، خافت علي حين رأتني وأنا أناجي ربي، وأشكو همي، فقلقت علي، ظنَّت أنني سأنتحر. رأيتها وهي تراقبني من بعيد، حتى اقتربت مني، وسألتني إن كنت في حاجة إلى شيء. نظرتُ إليها وقلت لها: "اطمئني، أنا مؤمنة، لن أفعل ما يغضب الله مني "

وتركتني، وطبطبت على كتفي، وقالت لي: يا بنتي.

اهدئي، وأكملي مناجاتك الجميلة، التي سمعتها منك، مع ربك، فهو وحده من يغير القدر.

وظللت على هذا الحال وعلى هذا الوضع إلى الساعة الثانية فجراليوم الثاني. حتى هدأت ووجدت نفسي لا أقوى على السير.

ففتحت الهاتف الجوال بعد أن كان مغلقا، فوجدت الكثير من الاتصالات من كل من أعرفهم، ورسائل ورنات كثيرة من هشام، حتى إن شحن البطارية لم يستوعب، فأُغلق الهاتف.

لم أعرف كيف أتصرف، ألهمني الله أن اتجه إلى أحد المحلات، لأطلب منها أن أقوم بمكالمة.

اتصلت بهشام، وطلبت منه أن يأتي ليأخذني، فأنا لا أستطيع السير.

جاء هشام وحده، وكان فطنًا حين فعل ذلك.

لم أكن أريد الكلام مع أحد سواه.

ـهشام!

ـ لماذا فعلتِ ذلك بي يا جهاد؟، أنت لا تعرفين غلاوتك عندي.

ـهل أنا كذلك؟

ـأنت من زوجتِني بها رغم اعتراضي.

ـ ليس هذا ما يوجعني، يا هشام.

ـأنا لم أفعل شيئا يغضبك، فماذا يبكيك؟، هل ندمت على قرارك؟

ـلا، والله لم أندم. أنا تعبة من شيء آخر.

وحكيت له ما سمعته على السلم من (ضرتي).

صمت هشام، ولكن لم يبد على وجهه الخجل كما في السابق. بل بدا على وجهه الغضب الشديد وأخذني من يدي، وأشار لسيارة أجرة وأدخلني برفق دون كلام. ظلَّ صامتًا طوال الطريق، ولم يتفوه بكلمة واحدة.

وصلنا إلى البيت فصاح هشام بصوت عالٍ: "استيقظوا جميعًا".

أيقظ أمه وأباه، وكذلك (ضرتي)، جمعهم جميعًا وطلب منهم ألا يتفوه أحد بكلمة وصاح فيهم بصوت عال وهو ينظر بغلظة إلى زوجته الثانية:

ـ اسمعوا جميعًا.

جهاد هي حب عمري، هي زوجتي الأولى، وعشقي الأول والأخير، وأنا لم أظلم أحدا، وعدلت بينكما على قدر استطاعتي.

ولم أتزوج دون إذن منها، فهى من ترعى أولادا ليسوا أولادها، وتنازلت عن جزء من حياتها من أجل إسعادي، هي نتقي الله فيكم، فاتقوا الله فيها.

وأنا لم ولن أقدر على العيش من دونها، فلتفهموا هذا وتعوه جيدًا.

ـهدأت الأمور بعد ذلك، وأصبح كل شيء في نصابه، بلا لغط أو سوء تقدير.

حملت (ضرتي)، وأنجبت فتاة جميلة فصمم هشام على أن يسميها جهادا، وهذا أسعدني جدًّا.

علمت الزوجة الثانية أن لي محبة في قلب هشام لن تتزحزح.

ومرت الأيام والسنوات، وأصبح عبد الرحمن وجهاد الصغيرة دائمي الإقامة معي في شقتي وأصبح لدي ابن وابنة عبد الرحمن وجهاد وأنا حامدة شاكرة لله فضله ونعمه.

نعم، صدقتِ، يا أم عبد الرحمن وجهاد..

أنتِ اخترتِ مبدأ القناعة بقدرك المحتوم..

وآمنتِ ووثقتِ في أن اللّه لن يخذلك..

فلح الاختيار، وفلح ظنك باللّه

*****

((الحدوتة الثانية عشرة))

عم جمال بتاع الفول

ليس عيبا أن تسعى إلى المال.....

ما دمت تسير في درب الحلال.....

ستُرزق.....

فاجأني زوجي بفسحة لطيفة، فقد دعاني للخروج على الكافيه بجوار البيت الذي لا يبعد سوى بعض الأمتار. ولكنني شاكرة له على هذه الفسحة، فهى أفضل من لا شيء.

كان الجو رائعًا وهادئًا.

أشار زوجي إلى ذلك الرجل العجوز الذي يجلس مع زوجته الأنيقة بجوارنا، وقال لي:

أتدرين من هذا الرجل؟

فهززت رأسي مُجيبة بلا:

ـإنه عم جمال بتاع الفول.

ـعم جمال وبتاع الفول!

ـنعم، كان رجلًا بسيطًا، له حكاية لطيفة.

ـ كلي آذان مصغية.

ـ كان عم جمال مُوظفا بسيطا، يصحو من نومه مبكرًا، يذهب إلى عمله بكل نشاط، يجتهد ويجتهد، ولكن راتبه لا يكفي لآخر الشهر.

زوجته امرأة طيبة، تحاول أن تعاونه في توفير نفقات البيت على قدر ما تستطيع، ولكن دون جدوى، فالمصارف تزداد يومًا بعد يوم.

قرر عم جمال أن يستقيل من وظيفته الحكومية، ويستبدل بها رزقه من عمل سندويتشات الفول والطعمية.

تفاجأت زوجته بهذا القرار، ولكنها مؤمنة به، فلم تؤنبه، أو تعاتبه على ذلك. بل على العكس تماما، قررت العمل معه يدًا بيد.

استقال عم جمال، وبحث عن محل مناسب في مكان تجمع الطلبة والموظفين.

كانت زوجته تُسهر طوال الليل لتجهيز مستلزمات السندويتشات.

يسمع عم جمال صوت أذان الفجر، فيقوم ليصلي، ويدعو الله بالرزق الحلال الذي يكفيه هو وأولاده.

تساعده زوجته في نقل التجهيزات إلى المحل، ليبدأ عمله مُتوكلًا على الله، فيتدافع الناس للشراء منه، فكان لطعم الفول والفلافل من عنده مذاق خاص.

يومًا وراء يوم، وأعواما وراءها أعوام ذاع صيت عم جمال وتحسنت أحوالهم المادية بشكل كبير، وتخطوا الصعاب

في حياتهم، وكان زوجي يراه مصليًا في المسجد في أغلب الفروض على قدر المستطاع.

أنهى زوجي الكلام عنه، ولكنني وجدتُ نفسي أنظر إلى زوجته، فهى جالسة على كرسيها، تنظر إليه بحب.

أما هو فقد التف بكرسيه مائلًا بجوارها، يحاكيها،

أشعر أنهما في مرحلة الخطوبة، وليسا زوجين قد مرَّ على زواجهما ثلاثون سنة.

شعرتُ أن بينهم عذوبة ورقة في التعامل.....

هناك فهم عميق ومرونة متبادلة بين الطرفين.....

يا ليت كل الشباب وأنا منهم نتعلم من فلاح عم جمال بتاع الفول.

*****

((الحدوتة الثالثة عشرة))

هل أسير على الدرب؟

عشرون عاماً مضت .....

يتخللها شيء مفقود .....

فأعثر عليه صدفة.....

طفلة صغيرة تحمل زهرة، وتجري وراء فراشة نضرة، تحاول الإمساك بها، إلا أنها تطير من بين يديها بعيدًا.

تنظر إلى السماء، وتشير بأصابعها الصغيرة، محاولة لفت الانتباه لتلك الفراشة، ظانة أنها ستعود لها مرة أخرى.

تكبر تلك الطفلة، سنوات وراء سنوات، وهي لا تزال تطمح في الإمساك بتلك الفراشة، ولكنها الآن أصبحت مشغولة بشيء أكبر، فهي في الثانوية العامة، تطمح أن تكون مُذيعة مشهورة، أو كاتبة عظيمة.

اجتهدت بكل ما تملك من قوى واستيعاب، ودخلت مضمار المنافسة على المجموع.

بالفعل حققت ما تمنت، والتحقت بكلية الإعلام.

أول يوم دراسي كان لا يُنسى، فقد كانوا يطلقون على كلية الإعلام "كريم شانتيه المجتمع".

كانت في شدة الفرح والسعادة، فقد اختارت أشيك الملابس لتحضر بها المحاضرات في أول يوم، وجلست على البنش الأول.

ولأن ضحكتها مميزة، فقد اختارها المصور ليلتقط لها الصور وسط زميلاتها، في حفل استقبال الطلاب الجدد.

لم تكن من سكان القاهرة، فقد كانت من محافظة أخرى.

فأصابها الضيق من طول الطريق وزحامه كل يوم.

فقرر أبوها أن تقيم في المدينة الجامعية، وبالفعل قد كان.

قضت يومًا وراء يوم، ولكن الضيق لا يذهب عنها، البنات اللاتي يشاركنها الحجرة يتسللن ليلًا للخروج.

لم يُعجبها ذلك الوضع، تعجبت من عدم التزامهن بالصلاة.

شعرت بالخوف على نفسها من فتنة الدنيا وزهوها، حاولت أن تساعدهن، ولكنها وجدت تأثيرهن أقوى بكثير.

حتى إنها فكرت في خلع حجابها الذي ترتديه منذ سنوات.

وفي أحد الأيام، في أثناء محاضرة أحد الأساتذة أشار الأستاذ المحاضر إلى أن الفتيات المغتربات يشققن على أنفسهن بوجودهن هنا في كلية الإعلام وأن الصحافة أو الإعلام يعمل بها خريجو أي كلية أخرى إذا كانوا يمتلكون الموهبة. فالإعلام يعتمد على الموهبة أكثر من أي شيء آخر.

فازداد ضيقها، وبدا الحزن على وجهها، خاصة أنها لم تعتدِ البعد عن أهلها إطلاقًا.

شعرت أن حجرتها تناديها، مكتبها الذي اعتادت أن تذاكر عليه، أخواتها، أمها وأبوها، صديقاتها؛ فقررت

الابتعاد، خافت من رد فعل والديها. فقامت بسحب ملفها بنفسها، وحولت دراستها إلى كلية التربية، قسم لغة إنجليزية.

لم يعاتبها أبوها على ما فعلت، بل ابتسم لها قائلًا:

(أحببتُ ما فعلتِ، فقد كنت أشتاق إليكِ كثيرًا.

اجتهدي، ولا تُشغلي بالك)

مرت الأربع سنوات، بسرعة الضوء، لأنها قابلت في تلك الكلية كل صديقاتها وجاراتها.

أحبتها بصدق، راضية، قانعة، تشعر بألفة مع من حولها.

تخرجت بتفوق، لذا عملت في التدريس قبل صديقاتها.

أصبحت معلمة لغة إنجليزية.

اعتبرتها مهنة سامية، أرادت أن تترك في عقول طلابها بصمة نفسية راقية.

لم تكن تركز على توصيل المعلومات فقط، بل اهتمت بمعنويات التلاميذ.

أرادت أن تعلمهم النواحي الإنسانية، قبل تعلم العلم نفسه.

كانت لها طريقة غريبة في التدريس، كان يعارضها فيها رؤساؤها أحيانًا تلك الطريقة، قائمة على عمل التلميذ بنفسه بصورة أكبر من عمل المعلم.

أي أن المعلم مُرشد للتلميذ أكثر منه مُلقنا للمعلومات، من أجل تخزينها في عقولهم.

عارضها أغلب زملائها، ولكنها كانت وما زالت مُصرة على مبدئها.

ترك بصمات أخلاقية واسترشادية، أهم من زرع معلومات قد تفيد وقد تُزال من عقولهم بمنتهى السهولة.

عشرون عامًا في نفس العمل، وذات يوم، وهي ذاهبة إلى مركز التصحيح لأداء عملها تنظر من نافذة السيارة، وتسأل نفسها:

هل أمسكتِ بفراشتك التي كنتِ تحاولين الإمساك بها وأنتِ طفلة يا سعاد؟ نعم، إنها الطفلة تحدثني. هناك شيء ناقص بداخلي.

أشعر بفيض غزير من المشاعر والكلمات أريد أن أسطرها على ورق.

فضحكتُ، وسألت نفسي: هل أستطع ذلك بعد عشرين عامًا؟

ولمَ لا؟، فلْأحاولْ.

أمسكتُ القلم هذه المرة، لا من أجل تصحيح الكراسات، أو من أجل تحضير الدروس. ولكن من أجل أن أكتب ما يجول في خاطري. يا لها من سعادة تغمرني، بدأتُ أعبر عما بداخلي.

واجهني بعض الناس بالسخرية مما أفعل، ولكن البعض الآخر قام بتشجيعي، نظرتُ إلى مُشجعيني، وأغمضتُ عيني عمن أحبطني، وحطَّ من همتي، وأصررتُ على المضي في ذلك الطريق، فقد وجدتُ نفسي أخيرًا، بعد عشرين عامًا، أبحث عن شيء مفقود في داخلي، ولا أعلمه.

حمدًا لله الذي وهبني شيئًا عظيمًا كهذا.

فلو قرأتم فعلًا تلك السطور،.....

هذا يعني أنني قد حققتُ حلمي في النجاح.....

وأنني سرتُ على درب من دروب الفلاح.....

*****

على الدرب

كانت هذه بعض القصص، لأناس اختلفت رؤيتهم للحياة.

منهم من اعتنق مبدأً، ومنهم من صبر على ابتلاء.

ولكنهم في النهاية..

جمعوا بين رضا الله وإرضاء أنفسهم..

تعبوا، وكدوا، وآمنوا بعدل الله وعطائه.

اجتمعوا جميعًا في أمرين: البداية الصعبة مع الإصرار على السعي، والنهاية الفرحة بجود عطاء الله وكرمه.

ولكن.

هل خالجك التفكير ذات يوم بهذه التساؤلات؟

ـ هل تسير على درب الفلاح بالفعل؟

ـ كيف تعرف أنك تسير على الدرب الصحيح؟

ـهل هناك علامات ودلائل تُشير على أنك في طريقك الصحيح؟

ـكيف أكون من أهل الفلاح؟

سنحاول معًا الإجابة على هذه التساؤلات.

قبل الحديث عن أي درب نسلكه، لا بد من الاتفاق أننا خُلقنا لنعبد الله، قد يقبل البعض هذا الكلام على مضض، ويقول: " وما الذي سأجنيه من ذلك، فأنا لست ملاكًا، فأنا بشر؟"

ولكن الرد السريع لذلك.....

أن الله يحبنا.....

نعم، فقد خلق لنا الله جميع ألوان المتعة الحلال، قبل أن يطالبنا بعبادته، فالإنسان يظل حوالي ثلاثة عشر عامًا أو أكثر غير مُكلف بالحساب إلى أن يبلغ، فقد منحه الله أعوام الطفولة الجميلة، لكي يلعب ويلهو، مع التدريب الخفيف على العبادة، تدريب وليس تكليفا كما يفعله البعض، حين يشقون على أولادهم صغارًا فلم يشق الله

عليهم، لترهقوهم أنتم البشر. ولأن الله يحب عباده، فقد تركه ليمرح، ويتدرب، ثم يُكلف.

وحين فرض الله علينا خمس صلوات، لم يكن إرهاقًا لنا كما يشعره البعض، بل لنذهب إليه ونستريح من لغط الحياة ونحدثه، ويسمعنا وندعوه بما نرغب ونتمنى في سجودنا، فيستجيب لنا.

عندما نصلي فإننا نحرك كل عضلات أجسامنا، فيحدث لنا تنشيط دون أن نشعر.

حين نركع ونسجد ونطيل في السجود يبدأ السائل الموجود في العمود الفقري في التجدد، ليلين الفقرات.

إذن فمن المستفيد من الصلاة، بالطبع نحن فهى البئر المليئة بالمياه، كلما ألقينا الدلو، تنعمنا بأعذب الماء الوفير.

إذن اتفقنا أن الله يُحبنا، وأن الغرض الأول من وجودنا هو عبادته، وذلك يصب في مصلحة العباد الروحية والنفسية وكذلك الجسدية.

وذلك هو أول الدرج في سلم الفلاح، ثم يأتي بعد ذلك الهدف من حياتنا اليومية.

أعيش وآكل ما لذ وطاب، وأروح عن نفسي أحيانًا ببعض التنزه.

ولكن ما هو الهدف الذي أخطط له في سنواتي القادمة؟

نحن نبرع حين نخطط للمصيف كل عام، نبدأ بتوفير النفقات شهراً تلو الآخر، ثم نحجز مكان الإقامة، ثم نتدبر أمر الانتقال، ونقوم بتوفير بعض المال للمتعة والتسلي وهذا ليس عيباً أنقده، بل هو ضروري وهام جدا حتى نستطيع مواصلة حياتنا باقي العام دون إرهاق أو كلل.

فلماذا لا نخطط لأهدافنا في الحياة بمثل هذا التنظيم والاهتمام؟!

وليس عيبا أن ندونها على الورق، نعم، أذكر أحد الأصدقاء كان يأمل في الالتحاق بكلية الطب، كان يدعو الله صباحًا ومساءً، ويدرس بجد واجتهاد. حتى إنه كتب على الحائط في غرفته " كلية الطب "على الجدران الأربعة،

لكي تقع عينه على تلك الكلمات كلما استبدل مكان جلوسه.

وعندما سألته:

ـ هل ساعدتك تلك الكآبة على الحائط؟

ـ بالطبع، فكلما تكاسلت، واستهواني اللهو، والعبث في الوقت تقع عيني صدفة على "كلية الطب"، فأتذكر حُلمي، ويرتسم أمام عيني عملي المستقبلي، فأقبلُ على الدراسة بحماس أكبر من السابق.

الهدف ليس كلمة نتشدق بها.....

ولكنها تحمل الكثير من المفاتيح لباب الفلاح في نهاية المطاف.

انتحر تامر، لأنه لم يحمل هدفا، فقد كان تابعًا في بداية حياته للشباب المنحرف، وعندما أبدل تلك الحياة البائسة بحياة إيمانية أفضل، ظل تابعًا أيضًا، ولم يخلق لنفسه أي أهداف خاصة يعيش من أجلها.

فمن امتلك الهدف، وناضل من أجله، لا بد أن يناله في النهاية، وهذا وعد الله لنا، "إن الله عند حسن ظن عبده به"

فأحسنوا الظن بالله.....

وتمنوا وارسموا أهدافكم، ثم انظروا عطاء الله لكم.

تمسكوا بالإصرار

فهو المكمل للهدف، الهدف دون إصرار يضيع ويفنى.....

فهما وجهان لعملة واحدة.....

ولكن ما هو الإصرار؟

هو العزيمة والتصميم على بلوغ أهدافي التي رسمتها لحياتي فقد تعترضني بعض العقبات في أثناء مسيرة تحقيق أهدافي.

ـهل أستسلم؟

ـهل ألقي باللوم على من وضعوا تلك العقبات في طريقي؟

لو فعلت ذلك فقد أضعت إصرارك.

أذكر قصة كان يرويها "الدكتور إبراهيم الفقي " رحمه الله: (كان هناك رجل فقد زوجته، وله طفلان، تحمل كل المسؤولية في تربيتهما، وخلق لنفسه هدفًا في حياته. ألا وهو تربية طفليه ورعايتهما وإيصالهما لأفضل حياة. ذات يوم أوصلهما إلى المدرسة، وعاد إلى البيت.

بعد ساعات، شاهد أهل البلدة جميعًا يسرعون نحو المدرسة لإنقاذ أولادهم من تحت الأنقاض، فقد هُدم المبنى في أثناء اليوم الدراسي. فأسرع الرجل يلهث ويجري ويطوي الأرض طيا قائلًا: يا رب! ساعدني في إنقاذ أولادي. لن أترككما يا أحبائي، وبالفعل حاول الحفر، ولكن رجال الإنقاذ أبعدوه، لكي يتخذوا الوسائل العلمية في الحفر لإنقاذ الأولاد.

ظلت فرق الإنقاذ تحفر وتبحث طوال الليل حتى يئس الجميع، ولكن الرجل، لم ييأس وظلَّ يحفر هو بنفسه باقي الليل كله وحتى الصباح. وبينما يزيح الرمل بنفسه وجد يدا تحاول أن تمسك به، ففرح بشدة، وظلَّ يصرخ في البلدة كلها، لتعاونه فتجمعوا، وحفروا معه في نفس الاتجاه الذي اتخذه، وبنفس الطريقة.

وبالفعل بدأت الأطفال في الخروج وكانت ابنته هي الأولى في الخروج، أما ابنه فكان آخر طفل.

قال له ابنه:

كنت واثقًا أنك لن تتركني، يا أبي)

هذه القصة حملت كل معاني الفلاح والنجاح.

رسم الأب هدفه في الحياة، وعمل وسعى لتحقيق ذلك الهدف، مع الثقة بالله في أنه سيتحقق.

وعندما تعثر، كان هناك تصميم وإرادة قوية على تحقيق ما تمناه.

فإن كنت تمتلك الهدف، والتصميم والإرادة.....

والثقة بالله أنه لن يخذلك.....

فأنت على الطريق الصحيح لدرب الفلاح.....

أما إذا ضاع منك واحد فقط من تلك المفاتيح فأنت لست على الطريق، أنت تسير بجانبه، تلعب دور المتفرج على من يتسابقون في مضمار الحياة إلى الفوز.

ولا ننسى أن سعينا كله سيُرى. كل المحاولات والتعب سيجازينا الله عليها أحسن الجزاء إذا كانت في غير معصية.

وضع الله ﷻ صيغة الأذان وعلَّمه لنا

وكان فيها "حيَّ على الفلاح "، فهو سبحانه صاحب العطاء والجود، ينادينا إلى الفلاح في الدنيا قبل الآخرة.

*****

عند وضع أهدافك من الحياة، لا بد أن تمتلك المهارة لتحقيق هذا الهدف، ولا بد أن تؤمن بأنك قادر على الإنجاز، لرسم الأمنية أو الهدف.

ولا تعتمد على من حولك لرسم أهدافك ودوافعك، لتحقيق أمنياتك أو إيمانك بشيء في حياتك؛ لأنك إذا اعتمدت على أحد من البشر، ربما لا تتمكن من مواصلة السير نحو أهدافك، فهم يتغيرون.يشجعونك أحيانًا، ويحبطونك أحيانًا أخرى. فلا تستمد دوافعك منهم، اخلقها بإذن الله من داخلك، واستعن بقدرة الله في ذلك الخلق.

اطلب كل يوم من الله أن يعينك على اكتشاف الهدف الذي نحيا من أجله.

لو علم الله أنك تمتلك النية الفعلية، وليست العبثية سيدلك ويرشدك، ويبعث في قلبك دوافع ذاتية لتحقيق أهدافك.

لا تسئ الظن بنفسك، أو أنك غير قادر.

من يرى دنياه واسعة، تتسع له.

ومن يراها ضيقة فستضيق عليه.

وحاول أن تتبع بعض الخطوات لخلق الهدف.

أولًا:

الدعاء المستمر الذي لا ينقطع أبدًا، للعثور على الهدف الذي تأمله، فالدعاء ينتج عنه رسالة ربانية، يرسلها الله لك، لتعثر على هدفك، الذي تاه عنك.

الرسائل الربانية، يرسلها الله ﷻ للبشر، لينير لهم الطريق ويحفها بالشفافية والنقاء.

وتكون المصباح المنير الذي يضيء حياتنا، والنعيم لنا لمواجهة صعاب الحياة وعراقيلها.

فلو أرسل لنا أحد البشر إحدى الرسائل الدنيوية لكي نستفيق، نثبت ونعيد النظر فيما نفعل.

فما بالك لو كانت تلك الرسائل ربانية، أرسلها الله لك.

كل واحد منا تأتيه تلك الرسائل، منا من يفهمها، ويواجه نفسه بها.

ومنا من لا يفهمها، وتظل مغلقة بالنسبة له.

أن تكون لك القدرة على قراءة الرسائل الربانية، فهذا يعني أن الله منحك هبة ربانية، عظيمة، حتى ولو كان ما ظهر لنا لا نرى منه إلا شرًّا.

فكلما بدا وظهرت القدرة لك على قراءة الرسائل العظيمة الربانية، وفهمت المقصود منها في داخلك، فإنك تتمتع بالقدرة على تحقيق هدفك.

ثانيًا :

دائمًا راجع شريط حياتك، وأنت ترسم أهدافك، كي تتعلم من الماضي، حتى لا تكرر نفس الأخطاء، وليس كي تؤنب نفسك على ما أخطأت.

أعد ترتيب أولوياتك، فربما ما تصر على تحقيقه اليوم، لا يصلح إلا غدا، والعكس صحيح.

واجعل أهدافك واقعية، يمكن تحقيقها، وليس هدفا خياليا، بشكل غير محقق،

حتى لا تصاب بالإحباط والاكتئاب. وبدلا من أن تبني أهدافًا، تنجرف إلى علاج الإكتئاب.

ثالثًا :

التدرج شيء ضرورى ومطلوب، بمعنى أنه يجب عليك أن تبدأ بهدف صغير في البداية، وبعد نجاحك في تحقيقه، ترسم هدفا أكبر، ثم الأكبر وهكذا. حتى يمكنك التعديل في الأهداف في أثناء السير في درب الحياة. فربما تعديلك لأهدافك الصغيرة في أثناء السير، يوصلك أسرع لتحقيق الهدف الأكبر بشكل أسرع.

رابعًا:

الرغبة الداخلية، لا بد أهدافك تكون من داخلك، ليست مشابهة لأحد، لأن ما يقدر على فعله أحد ما، لا يقوى على فعله الآخر. واستعن بالله في هذا.

خامسًا:

السيطرة على نفسك، حتى لا يضيع الهدف، ويصيبك الفتور. لأن الأهداف طويلة الأمد، قد تصيب الإنسان بالفتور، أو الملل. ولو سكنت إلى الملل، سيصعب عليك المواصلة، ولهذا فإن تجزئة الأهداف إلى مراحل أضمن وأفضل.

قسم أهدافك إلى أجزاء، واجعل كل جزء له مدة زمنية حتى لا يطول الأمر ويصيبك الملل، ولكي تستطيع تقييم نفسك، بعد انتهاء كل جزء، وتدوين ما نجحت في تحقيقه، وما لم تنجح، فربما كنت في حاجة ماسة، لتغير مسار الهدف، وأنت لا تدري.

سادسًا:

لا تيأس، اليأس هو عدو النجاح، ولا ييأس من روح الله إلا الضعفاء. كن قويًّا، تجد القوة في أهدافك، وفي تحقيقها.

تأتي المرحلة الثانية بعد الهدف، وهي الإصرار، التمسك بأحلامك وأهدافك، هي مرحلة هامة لا تقل أهمية عن المرحلة الأولى وهي الوصول للهدف؛ لأن الإصرار هو الجدار العازل عن الفشل.

لأنك ستجد عراقيل كثيرة حولك من البشر، أو من الروتين الحياتي الموجود حولنا.

فإن تحليت بصفة الإصرار والعناد، في تحقيق أهدافك ستصل إلى منتصف النجاح، بالفعل.

أما التخلى عن أحلامك بسهولة، متعللًا بأنك واجهت العراقيل، فهو منتصف الفشل.

كيف أدرب نفسي على التمسك والإصرار....؟

نعم، يمكنني ذلك، فعند اصطدامك بأول العراقيل، تواجه، وترسم أمام عينك جملة تكتبها على الحائط، أو تتخيلها بين نصب عينيك، تكررها مرارا وتكرارا. فأنا مثلًا، كانت لي تجربة في هذا الموضوع.

عندما بدأت الكتابة لأول مرة، واجهني كل من حولى بوجوه يملؤها العجب والدهشة المحبطة. لكني كتبت جملة خيالية ووضعتها أما عيني بل بدأت أرددها على لساني

" I am a writer "

صدقت حلمي، كنت أرددها بصوت غير مسموع في البداية، ولكن عندما تزداد العراقيل، أرددها بصوت مسموع لأذني.

ودعمت إصرارى بحسن الظن بالله.

وهنا تأتي المرحلة الثالثة، ألا وهي الإيمان بأن الله لن يخذلك.

تلك المرحلة، كتبت فيها كتبا كثيرة، ولكن لا يعيها إلا من وعى اليقين. اليقين بقدرة الله على تحقيق أهدافك، ليست من أجل التجربة، لا يجوز التجربة في ذلك، بل اليقين التام بالقدرة الإلهية أن الله معك، يسندك، يعينك. الله يرزق من كفر به إذا اجتهد في عمله، وصبر، وجاهد، وأيقن بأنه سينجح.

أتشك أن الله سيتخلى عنك وأنت مؤمن، إذا اجتهدت في عملك.

ولا ننسى أننا مأمورون بتعلم الصبر، الصبر، له جزاء كبير في الدنيا، قبل الآخرة.

هناك مكافآت ينالها الصابرون في الدنيا قبل الآخرة تعلم كيف تصبر، تدرب على ذلك.

لا تأتي الصفات التى يتحلى بها المؤمن هكذا من محل البقالة. ولكن التدريب والمواظبة.

وهنا يأتي دور الآباء والأمهات، ينجبون الأطفال، ويجهلون أبسط أساسيات التربية.

لأن التدريب على الصبر يأتي من الصغر. حين يعلم الأب ابنه أن يصبر قليلًا، قبل أن يلبي له حاجاته يعطيه وعدا بتحقيق ما يريد في وقت لاحق ويحدد ذلك الوقت، ويفي بالوعد

وإلا تحول تعليمه الصبر، إلى تعليمه التخلي عن الوعد.

نربي أبناءنا على الصبر منذ الصغر.

فإن فات الأوان، لم ينقض التعلم.

نعلم أنفسنا نحن، رويدًا رويدًا، نحقق ما نتمناه.

جميع العلماء الذين قاموا باختراعاتهم، كان لديهم الصبر لكي يصلوا إلى ما وصلو إليه.

جميع الشيوخ، تحلوا بالصبر على العلم والتعلم، لكي يصلوا إلى هذه المكانة.

*****

المحتويات

((حيّ على الفلاح)) ٥

(الحدوتة الأولى) شبيهة أم كلثوم ١٧

((الحدوتة الثانية)) بلهاء فطنة جميلة ٢٩

((الحدوتة الثالثة)) طاقة الجامع ٤٥

((الحدوتة الرابعة)) الشاب الأسمر ٥٧

((الحدوتة الخامسة)) إصرار عبد العليم ٧٥

((الحدوتة السادسة)) ما هو سر انتحاره؟ ٨٥

((الحدوتة السابعة)) أبنائي الأعزاء ٩٥

((الحدوتة الثامنة)) حكاية زُهرة ١٠٥

((الحدوتة التاسعة)) حدثتني أمي ١١٣

((الحدوتة العاشرة)) ماذا عساي أن أفعل..... ١٢٣

((الحدوتة الحادية عشرة)) قرار صعب ١٣٥

((الحدوتة الثانية عشرة)) عم جمال بتاع الفول ١٥٩

((الحدوتة الثالثة عشرة)) هل أسير على الدرب؟ ١٦٥

على الدرب ١٧٧

المحتويات ٢٠٤